الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

العدد ١١٩ — ١٤ أكتوبر سنة ١٩٣٥ — السنة الثالثة

3 me Année, No. 119.

Lundi-14-10-1935

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéra
Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة

م

٦٠ فى مصر والسودان

٨٠ فى الأقطار العربية

١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى

١٢٠ فى العراق بالبريد السريع

١ ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الادارة

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع البدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العــــدد ١١٩ « القاهرة فى يوم الاثنين ١٦ رجب سنة ١٣٥٤ — ١٤ أكتوبر سنة ١٩٣٥ » السنة الثالثة

فهرس العــــدد

خزائن الكتب فى القاهرة

على ذكر الخزانة الزكية

للدكتور عبد الوهاب عزام

قرأت فى إحدى الجرائد أن وزارة المعارف عزمت على نقل الخزانة الزكية — مكتبة أحمد زكى باشا رحمه الله — من مكانها فى قبة الغورى إلى دار الكتب العامة . ويرحم الله زكى باشا ؛ لو كان حيّاً لصال بلسانه وقلمه ، وملأ الدنيا حجاجاً ، وشغل رجال الحكومة بزياراته وأحاديثه ، ليدافع عن كتبه العزيزة عليه التى أنفق عمره فى جمعها ، وأقامها مقام الأولاد فمنحها فكره وقلبه ، فيمنعها أن تنقل من مكانها الذى اختاره فى قبة السلطان الغورى . وكان رحمه الله معجباً بالغورى إعجاباً طوى ما بينهما من عصور ، فكان إذا تحدث عنه قال : « صديق السلطان الغورى » . لكن شيخ العروبة الذى كان نشاطاً لا يفتر ، وحركة لا تسكن ، وعملاً لا يمل ؛ قد طواه الردى ، فأصبحت « الخزانة الزكية » الخزانة اليتيمة

ومن قبل نُقلت إلى دار الكتب الخزانة التيمورية التى جمعها من أقطار الأرض العلامة التقى النقى أحمد تيمور باشا رحمه الله ،

وليست هذه سنّة رشيدة ؛ ليس سنّة رشيدة أن تجمع الكتب فى مكان واحد ، وتحرم القاهرة المعزّية إلا من مكتبة واحدة يزدحم فيها القرّاء من كل قبيل ، ويلتقى فيها الباحث المدقق الذى يستقصى المخطوطات القديمة ، والقارئ الذى يُزجى وقته بقصة مُلهية ، ويفد اليها أهل القاهرة من المحلات الدانية والقاصية

لا بد لنا من مكتبة عامة جامعة كدار الكتب ، ولكن لا بد لنا معها من مكتبات خاصة كالخزانة التيمورية والخزانة الزكية ، يقصدها الباحثون المنقّبون ، ويؤمها خاصة المطالعين ، فيجدون مكاناً ساكناً يسكنون اليه ويتعارفون فيه ، ثم تكون لكل مكتبة خصائص معروفة تجذب إليها صنفاً من الباحثين ؛ ولا بد لنا ، إلى هذه وهذه من مكتبات محلية ، يستفيد منها أهل كل محلّة فى القاهرة ، يجدونها قريبة اليهم ، ويُلفون كتبها ميسرة لهم

كان من سنن الحضارة الاسلامية الاكثار من خزائن الكتب الكبيرة والصغيرة فى كل مدينة ، وكان لكل مسجد كبير خزانة كتب ، فكانت القراءة ميسورة لكل طالب فى كل حى وفى كل مسجد ، وليس يتسع المجال هنا للحديث عن خزائن الكتب فى المدن الاسلامية القديمة فى المشرق والمغرب فهو حديث طويل ، وحسبك أن أبا تمام عوّقه البرد فى همذان فوجد فى إحدى خزائنها ما يسّر له اختيار حماسته ، وأن ياقوتاً الحموى أقام فى مرو الشاهجان فأفاد من اثنتى عشرة خزانة بها ، فى كل واحدة آلاف المجلدات . وهو يقول فى معجم البلدان : « فكنت أرتع بها ، وأقبس من فوائدها . وأنسانى حبها كل بلد ، وألهانى عن الأهل والولد . وأكثر فوائد هذا الكتاب وغيره مما جمعته فهو من تلك الخزائن » . هذه مرو الشاهجان ، فما ظنك ببغداد والقاهرة وقرطبة ؟ كانت قرطبة لا تخلو دار كبيرة فيها من خزانة كتب

وكان فى الآستانة إلى عهد قريب زهاء أربعين خزانة ، فى كل جامع كبير واحدة ، وكثير منها يُشرف على حدائق ، وتتهدّل الأشجار عند منافذها . فليس يملّ القارئ الجلوس بها ، ولا يزعجه عن القراءة لغو ولا جلَبة . وقد يجلس المطالع فى مكتبة الفاتح فيود ألا تنتهى القراءة ولا ينتهى الوقت . وقارئ الكتب أحوج الناس الى المكان النزه الهادئ ، يوحى السكينة إلى نفسه ، ويجمع للمعرفة فكره ، ويحبّب إليه المثابرة والدأب . فأين من هذا دور الكتب الكبيرة المُطبِقة على المطالع بجدرانها ، وجلَبتها ، والتى تقطع عليه فكره بمناظر الداخلين والخارجين . يود قاصدها أن يحصّل أقل ما يريد فى أقصر وقت فيسارع إلى الخروج . وكم ينتظر حتى يظفر بالكتاب المطلوب ؟

وقد كان فى القاهرة خزائن فرّقتها يد الزمان-العسراء ، ولعبت بها غِيَرُه الهوجاء ، ثم جُمعت بقية الأحداث منها فى دار الكتب المصرية ؛ وقد رأينا وزارة الأوقاف إلى عهد قريب تجمع الكتب من المساجد فتضمها فى الخزانة الزكيّة . لقد أحسنت الحكومة بما فعلت حينما كانت الكتب عرضة للضياع ، غير مهيّأة للانتفاع ، ولكن الأحوال تغيرت ، ودار الكتب ضاقت بما فيها ، وغصّت بزائريها . فعلينا أن نتدارك اليوم ما عجزنا عنه بالأمس ، فنُعنَى بتجهيز القاهرة بخزائن الكتب المختلفة فى المحِلات المختلفة . ونحتفظ بما فى المساجد من الكتب إن كان لها بقية لنجعلها نواة لمكتبات كبيرة

ولم لا يكون لنا خزانة فى الجامع العتيق ، وكان مثابة العلم فى مصر زمناً طويلاً ؟ ولم لا يكون لنا خزائن فى جامع ابن طولون ، والجامع الأقمر ، وخانقاة سعيد السعداء التى كانت مأوى كبار العلماء ، ومساجد المؤيد ، وبرقوق ، والسلطان حسن ، وكانت هذه المساجد معاهد للدرس ، وقد اتخذنا بعضها اليوم مدارس أيضاً ، فلماذا لا نتخذها معاهد لمطالعة الكتب ؟ لماذا لا ننتفع بهذه الأبنية الواسعة الشاهقة فنفيرُ أموالنا ، ونعرف آثارنا ، ونصل ماضينا بحاضرنا ؟ وليت خزائن الكتب تتقسّم العلوم فيقصد الباحثون الجامع العتيق ليقرأوا الفقه والحديث وكل ما كتب عن الفسطاط ومصر فى عهد الفسطاط ، ويذهبون إلى جامع المؤيد ليقرأوا ما كتب عن المماليك ، ويقصدون خانقاة سعيد السعداء أو تكية المولوية لقراءة التصوف ، وهلم جرّا

هذه آراء يلقاها بالاستهزاء الذين خلعوا أنفسهم من تاريخنا وسنننا ، ولكني أرجو أن يكون لها من تفكير المفكرين نصيب

وبعد ، فينبغى أن تبقى الخزانة الزكية فى مكانها إبقاء على السنن الصالحة ، وتيسيراً للقراءة على طلابها ، واحتفاظاً برغبة صاحب الكتب الذى بذل فى جمعها من ماله وعمره ، ولبث حياته يحنو عليها حنوّ الأب الشفيق على أولاده . ولا يزال أمام وزارة المعارف سعة للتفكير والعدول عن الخطأ الذى همّت به .

عبد الوهاب عزام

٤ - الجمال البائس

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

قلتُ لها: إن قلبي وقلبَكِ يتجاليانِ في هذه الساعة (١) ويتباكيانِ؛ أتدرين ماذا يقول لكِ قلبي؟

إنه ليقول عني: أعزِزْ عليَّ بأن تكوني هـهنا، وأن تتألفَ منكِ هذه القصةُ التي تبدأُ بالوَصْمة وتنتهي بالاستخذاء فتنطلقُ المرأةُ في مَتالِفها ومهاويها ليبلغَ بها القدرُ ما هو بالغ؛ وليس إلا الضرورةُ وسطوتُها بها، والاذلالُ ومهانتُه لها، والاجتماعُ وتهكُّمُه عليها، والابتذالُ واستعبادُه إياها. ومهما يأتِ في القصة من معنى فليس فيها معنى الشرف؛ ومهما يكن من مَوْقفٍ فليس فيها موقف الحياء؛ ومهما يجْرِ من كلام فليس فيها كلمةُ الزوجة. وأعزِزْ عليَّ بأن أرى المصباحَ الجميلَ المشبوبَ الذي وُضع ليضيءَ ما حوله، قد انقلب فجعل يُحرق ما حوله؛ وكان يتلألأ ويتوقَّد، فارتدَّ يتسعَّر ويتضرَّم ويجني على ما يتصل به وسقطَ بذلك سقطةً حمراء....

أفتدرين ماذا يقول لي قلبك؟

إنه يقول عنك: يا بُؤسَنا من نساء! لقد وُضعنا وضعاً مقلوباً فلا تستقيم الانسانيةُ معنا أبداً، وكل شيءٍ منقلبٌ لنا متنكِّر؛ والشفقةُ علينا تنقلبُ من تلقاءِ نفسها تهكماً بنا، فنبكي من شفقة بعض الناس كما نبكي من ازدراء بعض الناس. يا بؤسَنا من نساء!

***

قالت: صدقت، وكذلك تنقلب أسبابُ الحياة معنا أسباباً للمرض والموت، فاليَقَظةُ ليس لها عندنا النهار بل الليل، والصَّحوُ لا يكون فينا بالوعْي بل بالسُّكر، والراحةُ لا تكون لنا في السكون والانفراد بل في الاجتماع والتبذُّل؛ وما يردُّ العيشَ على امرأة من واجباتها السهرُ، والسكرةُ والعربدةُ، والتبذلُ، وتدريبُ الطباع بالوقاحة، وتضْرِيَةُ النفس على الاستغواء والتصدِّي بالجمال للكسْب من رذائل الفُسَّاق وأمراضهم، والتعرُّضُ لمعروفهم بأساليبَ آخرُها الهوان والمذلة، واستماحتِهم بأساليب أولها الخداع والمكر؟

إن حياةً هذه هي واجباتُها، لا يكون البكاءُ والهمُّ إلا من طبيعة من يحياها، وكثيراً ما نعالج الضحك لنفتح لأنفسنا طرقاً تتهاربُ فيها معاني البكاء؛ فاذا أثقلَنا الهمُّ وجلَّ عن الضحك وعجزنا عن تكلُّف السرور، ختلْنا العقل نفسَه بالخمر؛ فما تسكر المرأةُ منا للسكر أو النشوة، بل للنسيان، وللقدرة على المَرَح والضحك، ولأمدادِ محاسنها بالأخلاق الفاجرة من الطيش والخلاعة والسَّفَه وهذَين الجمال الذي هو شعرُه البليغ.... عند بلغاء الفُسَّاق

قال الأستاذ (ح): أهذا وحاضرُ الغادة منكن هو الشباب والصِّبي والجمال وإقبالُ العيش، فكيف بها فيما تستقبِل؟

قالت: إن المستقبل هو أخوفُ ما نخافه على أنفسنا، وليس من امرأةٍ في هذه الصناعة إلا وهي معدةٌ لمستقبلها إما نوعاً من الانتحار، وإما ضرباً من ضُروب الاحتمال للذل والخسف؛ وليس مستقبلنا هـذا إلا كمستقبل الثمار النضِرة إذا بقيت بعد أوانها، فهو الأيام العَفِنة بطبيعة ما مضى. بَلى إن مستقبل المرأة البغيِّ هو عقاب الشر

***

قال (ح): هذا كلام ينبغي أن تعلمه الزوجات؛ فالمرأةُ منهن قد تتبرَّم بزوجها وتضْجَر وتغتمّ، وتزعم أنها معذَّبة فتَتسخَّط الحياة، وتندُب نفسها؛ ثم لا تعلم أنه عذابٌ واحد برجل واحد تألفهُ فتعتادُه فتَرزَقُ من اعتياده الصبرَ عليه فيسكنُ بهذا نفارُها. وتلك نعمةٌ واجبها أن تحمدَ الله عليها ما دام في النساء مثلُ الشَّهيدات تتعذبُ الواحدةُ منهن فنوناً من العذاب بمائة رجل وبألف رجل، وهم مع ذلك يتبلُّون روحَها بعددهم من الذنوب والآثام

وقد تستثقل الزوجة واجباتها بين الزوج والنسل والدار، فتغتاظ وتشكو من هذه الرَّجرَجة اليومية في الحياة، ثم لا تعلم أن نساءً غيرها قد انقلبت بهن الحياةُ في مثل الخسْف بالأرض وقد تجزع للمستقبل وتنسى أنها في أمان شرفها، ثم

---

(١) أي يتكاشفان ويجلو كلاهما للآخر ويوضح

لا تعلم أن نساءً يترقبن هذا الآن كما يترقب المجرم غد الجريمة من يوم فيه الشرطة والنيابة والمحكمة وما وراء هذا كله

فقلت : وهناك حقيقة أخرى فيها العزاء كل العزاء للزوجات ، وهي أن الزوجة امرأة شاعرة بوجود ذاتها ، والأخرى لا تشعر إلا بضياع ذاتها

والزوجة امرأة تجد الأشياء التي تتوزع حبها وحنان قلبها ، فلا يزال قلبها إنسانياً على طبيعته ، يفيض بالحب ويستمد من الحب . والأخرى لا تجد من هذا شيئاً ، فتنقلب وحشية القلب ، يفيض قلبها برذائل ويستمد من رذائل ، إذ كان لا يجد شيئاً مما هيأته الطبيعة ليتعلق به من الزوج والدار والنسل

والزوجة امرأة هي امرأة خالصة الانسانية ، أما الأخرى فمن امرأة ومن حيوان ومن مادة مهلكة

وتمام السعادة أن النسل لا يكون طبيعياً مستقراً في قانونه إلا للزوجات وحدهن ، فهو نعمتهن الكبرى ، وثواب مستقبلهن وماضيهن ، وبركتهن على الدنيا ؛ ومهما تكن الزوجة شقية بزوجها فان زوجها قد أولدها سعادتها ، وهذه وحدها مزية ونعمة . أما أولئك فليس لهن عاقبة (١) إذ النسل قلب لحالتهن كلها ؛ وهو غني إنساني ولكنه عندهن لا يكون إلا فقراً ، وهو رحمة ولكنها لا تكون إلا لعنة عليهن وعلى ماضيهن . وقد وضعت الطبيعة في موضع حب الولد الجديد من قلوبهن ، حب الرجل الجديد ، فكانت هذه نقمة أخرى

قال (ح) : أتريد من الرجل الجديد من يكون عندهن الثاني بعد الأول ، أو الثالث بعد الثاني ، أو الرابع بعد الثالث ؟

قلت : ليس الجديد عليهن هو الواحد بعد الواحد إلى آخر العدد ؛ ولكنه الرجل الذي يكون وحده بالعدد جميعاً إذ هو عندهن يشبه الزوج في الاختصاص وفي شرف الحب ، فهو الحبيب الشريف الذي تتعلقه إحداهن وتريد أن تكون معه شريفة ؛ ولكن من نقمة الطبيعة أن من وجدته منهن لا تجده إلا لتعاني ألم فقده

يا عجبا ! كل شيء في الحياة يأتي شيئاً من الهم أو النكد أو البؤس على هؤلاء المسكينات ، كأن الطبيعة كلها ترجمهن بالحجارة . .

قالت هي : وليست الحجارة هي الحجارة فقط ، بل منها ألفاظ ترجم بها المسكينة كألفاظك هذه ... وكتسمية الناس لها « بالساقطة » فهذه الكلمة وحدها صخرة لا حجر

* * *

ثم تنهدت وقالت : من عسى يعرف خطر الأسرة والنسل والفضيلة كما تعرفها المرأة التي فقدتها ؟ إننا نحسها بطبيعة المرأة ، ثم بالحنين إليها ، ثم بالحسرة على فقدها ، ثم برؤيتها في غيرنا ، نعرفها أربعة أنواع من المعرفة إذا عرفتها الزوجة نوعاً واحداً . ولكن هل ينصفنا الرجال وهم يتدافعوننا ؟ هل يرضون أن يتزوجوا منا ؟

قلت : ولكن الأسرة لا تقوم على سواد عيني المرأة وحمرة خديها ، بل على أخلاقها وطباعها . فهذا هو السبب في بقاء المرأة حيث ارتطمت . وهي متى سقطت كان أول أعدائها قانون النسل

ومن ثم كانت الزلة الأولى ممتدة متسحبة إلى الآخر ، إذ الفتاة ليست شخصاً إلا في اعتبارها هي ، أما في اعتبار غيرها فهي تاريخ للنسل إن وقعت فيه غلطة فسد كله وكذب كله فلا يوثق به

وهذه الزلة الأولى هي بدء الانهيار في طباع رقيقة متداخلة متساندة لا يقيمها إلا تماسكها جملة ، وما لم يتماسك إلا بجملته فأول السقوط فيه هو استمرار السقوط فيه . ولهذا لا يعرف الناس جريمة واحدة تمد سلسلة جرائم لا تنتهي إلا سقطة المرأة . فهي جريمة مجنونة كالاعصار الثائر يلف لفاً ، إذ تتناول المرأة في ذاتها ، وترجع على أهلها وذويها ، وترمي إلى مستقبلها ونسلها ، فيهتكها الناس هي وسائر أهلها ، من جاءت منهم ومن جاءوا منها

والمرأة التي لا يحميها الشرف لا يحميها شيء . وكل شريفة تعرف أن لها حياتين : إحداهما العفة ، وكما تدافع عن حياتها الهلاك ، تدافع السقوط عن عفتها ، إذ هو هلاك حقيقتها الاجتماعية . وكل عاقلة تعرف أن لها عقلين تحتمي بأحدهما من

(١) يقال ليس له عاقبة أي ليس له نسل وعقب

نَزَوات الآخر ، وما عقلُها الثاني إلا شرفُ عِرضها

***

قال الأستاذ (ح) : إن هذه هي الحقيقة ، فما تسامح الرجالُ في شرف العِرض إلا جعلوا المرأة كأنها بنصف عقل فاندفعت إلى الطيش والفجور والخلاعة ، أرادوا ذلك أم لم يريدوه

قلت : وهذا هو معنى الحديث : « عِفُّوا تعفَّ نساؤكم » فان عفافَ المرأة لا تحفظه المرأة بنفسها ما لم تتهيأ لها الوسائلُ والأحوالُ التي تعين نفسَها على ذلك . وأهمُّ وسائلها وأقواها وأعظمُها ، تشدُّد الرجال في قانون العِرض والشرف

فاذا تراخى الرجالُ ضعفت الوسائل ، ومن بين هذا التراخي وهذا الضعف تنبثق حريةُ المرأة متوجهةً بالمرأة إلى الخير أو الشر على ما تكون أحوالُها وأسبابُها في الحياة . وهذه الحريةُ في المدنية الأوربية قد عوَّدت الرجالَ أن يُغضُوا ويتسمَّحوا ، فتهافتَ النساءُ عندهم تنالُ كل منهن حكمَ قلبها ويخضع الرجل . . . .

على أن هذا الذي يسميه القومُ حريةَ المرأة ليس حريةً إلا في التسمية ، أما في المعنى فهو كما ترى :

إما شرودُ المرأة في التماس الرزق حين لم تجد الزوجَ الذي يَعولُها أو يكفيها ويقيم لها ما تحتاج إليه ، فمثل هذه هي حرة حريةَ النكد في عيشها ، وليس بها الحرية بل هي مستعبَدةٌ للعمل شرَّ ما تُستعبَدُ امرأة

وإما انطلاقُ المرأة في عَبثاتها وشهواتها مُستجيبةً بذلك إلى انطلاق حرية الاستمتاع في الرجال ، بمقدار مايشتريه المال ، أو تعين عليه القوة ، أو يسوِّغُه الطيش ، أو يجلبه التهتك ، أو تدعو إليه الفنون . فمثل هذه هي حرة حريةَ سقوطها وما بها الحرية بل يستعبدها التمتع

والثالثة حريةُ المرأة في انسلاخها من الدين وفضائله ، فان هذه المدنية قد نسخت حرامَ الأديان وحلالَها بحرامٍ قانونيٍّ وحلالٍ قانوني ، فلا مَسقطةَ للمرأة ولاغضاضةَ عليها قانوناً . . . فما كان يعدُّ من قبلُ خِزياً أقبحَ الخزي وعاراً أشدَّ العار ، فمثل هذه هي حرة حريةَ فسادها ، وليس بها الحرية ولكن تستعبدها الفوضى

والرابعة غطرسةُ المرأة المتعلمة وكبرياؤها على الأنوثة والذكورة معاً ، فترى أن الرجل لم يبلغ بعدُ أن يكون الزوجَ الناعمَ كقفاز الحريرِ في يدها ، ولا الزوجَ المؤنث الذي يقول لها نحن امرأتان . . . . فهي من أجل ذلك مُطلَّقةٌ مُخلاَّة كيلا يكونَ عليها سلطانٌ ولا إمرة . فمثل هذه حرة بانقلاب طبيعتها وزيغها ، وهي مستعبدة لهوسها وشذوذها وضلالتها

حريةُ المرأة في هذه المدنية أوَّلها ما شئتَ من أوصافٍ وأسماء ، ولكن آخرها دائماً إما ضياعُ المرأة وإما فساد المرأة

والدليل على التواء الطبيعة في المدنية استواءُ الطبيعة في البادية ، فالرجال هناك قوَّامون على النساء ، والنساءُ بهذا قوامات على أنفسهن ، إذ ينتقمون للمنكر انتقاماً يفورُ دماً (١) وبهذه الوحشية يقررون شرفَ العِرض في الطبيعة الانسانية ويجعلونه فيها كالغريزة ، فيحاجزُون بين الرجال والنساء أولَ شيء بالضمير الشريف الذي يجد وسائله قائمةً من حوله

***

قال الراوي : وغطت وجهها بيديها وقالت : إنك لا تزال ترجم بالحجارة . . . إن فيك متوحشاً

قلت بل متوحشة . . .

إنكِ أنتِ قد تكلمت فيَّ ، فجمالك الذي يضع الانسان في ساعة مجنونة ليتمه بطيشها ، فقد وضعنا نحن في ساعة مفكرة وأمتعنا بعقلها ؛ وإذا قلت جمالك ، فقد قلت وحيك ، إذ لا جمال عندي إلا ما فيه وحي

أما قلتِ : إنك لو خُيِّرتِ في وجودك لما اخترتِ إلا أن تكوني رجلاً نابغةً يكتب ويفكر ويتلقى الوحيَ من الوجوه الجميلة ؟

(١) إلى ج . س . بمرسين (تركيا) . إذا كان حب الفتاة أكبر من حاضرها فلن يكون أكبر من زمنها الآتي كله ، فان كانت (تلك) قد نشأت على الفقر وتعلمت من فقرها الرضى ، ومارست الاحتمال وتعلمت من احتمالها الصبر ، فلتنفذ عزمها فحبيبها الفقير سيكون جمالا وسرورا لفقرها ويكون معها كأنه سعادة من الغنى . أما إن كانت نشأتها في الترف ولها أخلاق النعمة ، فان حبيبها الفقير سيكون لها هما جيلا ، ثم يقل فيكون هما ثقيلا ، ثم يحمل فيكون فقراً صرفا ، وتذهب الأوهام ، وتأتي الحقائق ، ويومئذ تكفي ذبابة لتحمل الحب وتطير به من دارها . . . . .

(الرافعي)

فقـــــدان الثقة

للأستاذ أحمد أمين

لعل أسوأ ما تُمنى به أمة أن يفقد أفرادها الثقــة بعضهم ببعض ؛ ففقدان الثقة يجعل الأمة فرداً ، والثقة تجعل الفرد أمة ؛ الثقة تجعـل الأجزاء كتلة ، وفقدانها يجعل الكتلة أجزاء غير صالحة للالتئام ، بل يجعل أجزاءها متنافرة متعادية توجه كل قوتها للوقاية والنكاية

كم من الزمن ومن المال ومن النظم ومن الخطط تنفق إذا فقدت الثقة ؟ ثم هى لا تغني شيئاً ولا تعيد ثقة

تصور أسرة فقـدَ الزوج فيها ثقته بزوجته ، والزوجة بزوجها ، ثم تصور كيف تكون حياتها : نزاع دائم ، وسوء ظن متبادل ، وانتظار للزمن ليتم الخراب

وهكذا الشأن فى كل مجتمع : فى المدرسة ، فى الجيش ، فى الحزب ، فى القرية ، فى الأمة

بل ما لنا نذهب بعيداً والانسان نفسه إذا فقد الثقة بنفسه فقد نفسه ، فلا يستطيع الكاتب أن يكون كاتباً مجيداً ولا الشاعر أن يكون شاعراً متفوقاً ولا أى عالم وصانع يجيد علمه وصناعته إلا إذا وثق بنفسه لدرجة ما ؛ وكم من الكفايات ضاعت هباء لأن ذويها فقدوا ثقتهم بأنفسهم ، واعتقـدوا أنهم لا يحسنون صنعاً ولا يجيدون عملا

وكل ما ترى من أعراض الفشل فى أمة سببه فقدان الثقة ؛ فالحزب ينهار يوم يفقد الأعضاء ثقتهم بعضهم ببعض ، والشركة تنهار يوم يتعامل أفرادها على أساس فقدان الثقة ، والمدرسة تفشل يوم لا يثق الطلبة بأساتذتهم والأساتذة بطلبتهم ، وكل جماعة تفنى يوم يتم فيها فقدان الثقة

كل نظمنا — على ما يظهر — مبنية على فقدان الثقة ، فوظائف « المفتشين » فى جميع مصـالح الحكومة والشركات أصبحت مؤسسة على فقدان الثقة ، فالمفتش فى الترام والسيارات العامة مبناه ضعف الثقة « بالكمسارى » ، ومفتش المالية ليراقب حركات مرءوسـيه حتى لا يختلسوا أو يزوِّروا ، ومفتشو الوزارات ليروا إلى أى حد يطبق الموظفون تعاليم الوزارة

قد كان الظن بالمفتشين أن يؤدوا عملا آخر غير هذا ، وهو أن يشرفوا على عمل المرءوسين ليوجهوهم وجهة صالحة ، ويتعاونوا معهم على رسم الخطـة القويمة ، ويصححوا الخطأ ، ويكملوا النقص ، ولكنهم — فى الأغلب — وقفوا فقط موقف الضابط يضبط الجريمة ، والصائد يرقب الفريسة ، لا موقف الهادى المرشد والناصح الأمين

فان أردت « بنداً » واحـداً من « بنود » ما ينفق من الأموال فى سـبيل عدم الثقة فاجمع مرتبات المفتشين فى جميع مصالح الحكومة

وليس الأمر مقصوراً على هؤلاء ، فالمراجعون ومراجعو المراجعين ؛ والأوراق تمر من يد إلى يد ، ومن قلم إلى قلم ، ومن مصلحة إلى مصلحة ، ومن وزارة إلى وزارة . كل ذلك له أسباب ، أهمها « فقدان الثقة »

وإن شئت حصر ما يستهلك من الأموال لفقدان الثقة فلا تكتف بمرتبات المفتشين ، بل أضف إليها مرتبات كل هؤلاء

فدقت صدرها بيـدها وقالت : أنا ؟ أنا لم أقل هذا . ثم أفكرت لحظة وقالت : إذا كنت أنت تزعمُ أنني قلتُه ، فأظن أنني قلته . . .

قال (ح) : رجل ؛ ويكتب ؛ ويفكر ؛ ولم تقل هى شيئاً . من هذا . أربع غلطات شنيعة من فساد الذوق

قالت : بل قل أربع غلطات جميلة من فن الذوق . إن الرجل الظريف القويّ الرجولة ، يجب عليه أن يغلط إذا حدَّث المرأة

قال (ح) : لتضحك منه ؟

قالت : لا بل لتضحك له . . . . .

قلت : فلى اليك رجاء

قالت : إن صوتك يأمر ، فقل

* * *

فماذا قلت لها وماذا قالت ؟

(لها تتمة) (طنطا) مصطفى صادق الرافعي

الذين ذكرنا ، فلو قلنا إن نصف مرتبات الموظفين ينفق فى سبيل فقدان الثقة لم نبعد

وليست المصيبة كلها فى الأموال ، فلو كنا نقدر للزمان قيمة كغيرنا من الأمم لاستفظعنا ما يستوجبه فقدان الثقة من أيام وشهور وسنين تضيع فى إجراءات وتدقيقات ومراجعات ومناقضات وتعليقات مبناها كلها « فقدان الثقة »

ثم هناك عقول للنابغين وكبار أولى الأمر فى الأمة تفكر ثم تفكر ، وتقدر ثم تقدر ، وتضع الخطط تلو الخطط ، والقوانين واللوائح والمنشورات تلو القوانين واللوائح والمنشورات ، ويخيل إليها أنها بما فعلت تأمن الخيانة والسرقة والتزوير ، وتظن بذلك أنها تعالج ما فسد وتصلح ما اختـــل ، وهى إنما تزيد بذلك فى « فقدان الثقة »

أضف الى هذا ما تسبغه هذه المظاهر كلها على نفسية الموظف ، فهو يرى كل هذه النظم واللوائح والقوانين والمراجعات والمناقضات فيشعر أنها انما شرعت له ومن أجله وبسبب فقـدان الثقة به ، وأنها كلها تنظر إليه كلص وكمجرم وكمزور ؛ فيفقد الثقة بنفسه ، ويعمل فى حدود ما رسم له ، ويشعر بالسلطات المختلفة عليه ؛ فلا يجرؤ على التفكير بعقله ، ولا يجرؤ على تحمل تبعة ، ويفرّ من البت فى الأمور ما وسعه الفرار ، حتى يكون بمأمن دائم من الأسئلة والمناقضات — وهذا هو سر ما نراه من بطء فى العمل ، وركود فى الحركة ، وضياع لمصالح الناس ، إذ لا شيء يبعث الثقة فى المرءوس مثـل أن يثق به الرئيس ، ولا شيء يبعث الحيرة والارتباك والاضطراب إلا ما يشعر به من « فقدان الثقة »

أنا كفيل بأنا لو قلبنا كل هذه النظم رأساً على عقب وهدمناها من أسسها وأزلنا أنقاضها ، ثم بنيناها على أسس جـديدة من الثقـة البحتة ، ماخسرنا من الأموال وما خسرنا من الأزمان والأنفس ما نخسر الآن ولو كثرت اللصوص وكثر الخائنون والمزورون

هب أنا فتحنا مكتبة وأسسنا نظامها على الثقـة بالموظفين والمترددين من المطالعين فاستغنينا عن مراقب واستغنينا عن مراجع واستغنينا عن مفتش وهكذا ، واكتفينا بعمير للكتب و « فتى » يضع الكتب كل يوم فى أماكنها ، فماذا يكون الشأن وماذا يكون حسابنا فى المكسب والخسارة ؟ لاشك أننا سنفقد كتباً يسرقها بعض المترددين ، وهذا هو كلّ الخسارة ، ولكننا بجانب ذلك نوفر مرتبات كاتب ومراقب ومفتش ، ونوفر أزماناً طويلة تصرف فى عمليات الجرد والحصر ، وننشر الثقة بين المطالعين ، ونشعرهم بأن المكتبة فى حمايتهم هم وتحت اشرافهم ، فننمى فيهم الشعور بالتبعة ؛ فاذا كان هذا مكسبنا وهـذه كل خسارتنا ، فالى النار هذه الكتب المفقودة ، وخسئت عين كل من ينظر فى عمليات الحساب إليها وحدها ، ولا ينظر إلى كل هذه الأرباح التى ربحناها

وهذا المثل الصغير يمكن تطبيقه تمام التطبيق على الأعمال الكبيرة فى المصالح المختلفة ، بل إنى أشترى نشر الثقة بين الناس وتسهيل الأعمال ، وشعور الناس بالطمأنينة بأى ثمن ، بل لو أن التجارب دلت على أن ما نفقد من الأموال أكثر مما نربح إذا أسسنا النظم على أساس الثقة لاستمررت فى تجربتى ونظريتى ، وآمنت بوجوب الانتظار على هذا الأساس الجديد حتى يذهب هذا الجيل الذى أفسده النظام القديم ، وقضى على نفسه وعلى شعوره ، ولأنتظر جيلاً جـديداً نشأ فى احضان « الثقة » والشعور بالواجب وبالتبعة وبالحرية فى العمل فى دائرة ضيقة من القوانين المعقولة

وهكذا الشأن فى جميع الأمور السياسية والاجتماعية ، فثقة أفراد الحزب بعضهم ببعض — ولو مراعاة للمصلحة — أضمن للنجاح ، وأقرب لتحقيق الغرض ؛ وثقة الجمعيـة برئيسها ، والرئيس بأعضائها — ولو تصنعا — أقرب لأن ينقلب التصنع خلقا

وقد رأينا — دائماً — أن العدوى فى المعانى كالعـدوى فى المحسات ، فكما أن التثاؤب يبعث التثاؤب ، والضحك يبعث الضحك ، فكذلك الثقة تبعث الثقة وعدمها يبعث عدمها .

وبعد ، فلا تزال ترن فى أذنى كلمة سمعتها من أستاذ انجليزى كان فى الجامعة : « إذا كنتم لا تريدون أن تولوا أموركم الأجنبى ، ولا تمنحون ثقتكم المصرى ، فـكيف تعيشون ؟ »

أحمد أمين

افتتاح إفريقيـــة

وكيف غزاها الاستعمار الاوربى

بقلم مؤرخ كبير

تتمـــة

لم يبق اليوم فى إفريقية من الأمم المستقلة سوى الحبشـة ، وجمهورية ليبيريا ؛ ولـكن ليبـريا ليست فى الواقع سوى منطقة للنفوذ الأمريكى ، وقد أنشأها الزنوج الأمريكيون الأحرار ؛ ومع أنها جمهورية مستقلة وعضو فى عصبة الأمم ، فان السياسة الأمريكية هى التى تشرف على شؤونها العليا ؛ وعلى هذا فليس فى إفريقية اليوم أمة تتمتع باستقلالها الصحيح سوى أمبراطورية الحبشة ؛ وهى تتمتع بهذا الاستقلال منذ فجر التاريخ . وقد حاول الاستعمار الأوربى غير مرة أن يحطم استقلالها ، ولـكنها استطاعت أن تسحق مشروعاته ومحاولاته ؛ والآن يعيد التاريخ دورته ويتربص الاستعمار الأوربى بالحبشة مرة أخرى ، ويحشد كل قواه وعدده المدمرة ، ويطالب علناً بافتراسها والقضاء على استقلالها تحقيقاً لشهوة الفتح والتوسع ؛ وها نحن أولاء نشهد العاصـفة وقد انقضت ، فهل تستطيع مملـكة سبأ الخالدة أن ترد عنها عادية هذا الغزو المبيَّت ؟ وهل تستطيع الفوز بهذا الاستقلال الذى حافظت عليه منـذ الأحقاب ؟ وهل تبقى الحبشة آخر حصن للاستقلال الافريقى ، أم تسقط صريعة الاعتداء ، فيجهز الاستعمار بذلك على آخر ملاذ لهذا الاستقلال ؟ هذا ما سيكشف عنه المستقبل القريب

وقد رأينا فيما تقدم كيف اقتسمت الدول الأوربية إفريقية فيما بينها ، واستقرت كل منهـا فى بعض مناطقها وأراضيها ، وأنشأت الدول الـكبرى — انكلترا وفرنسا وألمانيا — كل منها فى إفريقيـة امبراطورية استعمارية شاسعة . وكانت إيطاليا إحدى الدول التى شاركت فى افتتاح إفريقية ، غير أنها خرجت منها بصفقة يسيرة . ويرجع ذلك إلى أنها كانت فى أواخر القرن الماضى ، حين بدأ افتتاح إفريقية ، ما تزال دولة ثانوية ، حديثة عهد باستقلالها ووحدتها القومية ؛ هـذا إلى أنها لقيت خلال غزواتها الاستعمارية نكبة لم تلقها أية دولة أوربيـة ، إذ هزمت جيوشها وسحقت فى موقعة « عدوة » الشهيرة حسبما نفصل بعد ، فوضعت هذه الهزيمة الساحقة حداً لمشاريعها الاستعمارية مدى حين

بدأت إيطاليا محاولاتها الاستعمارية فى سـنة ١٨٨٢ ، إذ أرسلت إلى بلاد أرترية حملة احتلت خليج عصب وما يليه جنوباً ؛ واحتلت ثغر مصوع وما يليه من الساحل شمالاً (سنة ١٨٨٥) ؛ وأرسلت حملة أخرى إلى بلاد الصومال مما يلى المحيط الهندى ، فاحتلت شقة ضيقة طويلة على الساحل ، من نهر جوبا حتى رأس جردفوى ، وهى التى تعرف اليوم بالصومال الايطالى (سنة ١٨٨٨) . وكانت إيطاليا يومئذ دولة ناشئة فتية تجيش بآمال كبيرة ، وكان وزيرها الشهير (كرسبى) روح هذه المغامرات الاستعمارية ؛ وكان يحلم بانشاء امبراطورية استعمارية إيطالية ضخمة فى شرق إفريقية تضم الحبشة ، وتصل ما بين الأرترية والصومال ؛ وكان تفاهم الدول الأوربية على اقتسام افريقيـة يخول لأيطاليا حرية العمل فى تلك المنطقة . فلما تم احتلال الأرترية والصومال ، اعتقد كرسبى أن الفرصة قد سنحت لغزو الحبشة ، والعمل لانشاء الامبراطورية الاستعمارية التى يتوق إلى إنشائها

وكانت الحبشة منذ منتصف القرن التاسع عشر تجوز فترة من الضعف والتفرق ؛ وكان ملـكها يومئذ الأمبراطور تيودور ، وهو أمير من أمرا يدعى كاساى ، اغتصب العرش من الرأس (على) ملك الحبشة المسلم ، وأقام نفسه امبراطوراً ، وبسط على الحبشة حكمه المطلق ، وأثار بشـدته وعنفه فى معاملة الأجانب سخط الدول الأوربيـة ، وقبض على عدد من المرسلين والنزلاء الانـكليز وأبى أن يطلق سراحهم ، فجهزت انـكلترا حملة لغزو الحبشة بقيادة السير نابيير ؛ ونفذت هـذه الحملة إلى الحبشة فى سنة ١٨٦٨ ، وهزمت جيش الأمبراطور ، فاضطر تيودور أن يطلب الصلح ، ثم انتحر يأساً وغماً ؛ وانسحب الانـكليز ، وعادت الحرب الأهلية فى الحبشة ، واستولى على العرش كاساى أمير تجرى ، ونصب نفسه أمبراطوراً باسم يوحنا الثانى ؛ ولبثت الحبشة فى حالة اضطراب وفوضى ؛ واحتل الايطاليون فى تلك الفترة ساحل أرترية والصومال ؛ وكانت الجيوش المصرية قد نفذت قبل ذلك بأعوام إلى بعض مناطق الحبشة مما يلى السودان

فاستطاع الأمبراطور يوحنا أن يوقع بها هزيمة فادحة وأن يرغمها على الجلاء عن الحبشة (سنة ١٨٧٦)، ولما توفى يوحنا سنة ١٨٨٩ خلفه على العرش منليك أميرشوا، باسم الأمبراطور منليك الثانى. وبدأ منليك حكمه فى ظروف صعبة؛ وكانت إيطاليا قد استطاعت أن تتقرب إلى الحبشة، وأن تبسط عليها نفوذها شيئاً فشيئاً تحت ستار المعاونات والصلات الودية، وما زالت حتى استطاعت بسياسة الضغط والوعيد أن تحمل منليك على أن يعقد معها معاهدة حماية مقنعة هى التى تعرف بمعاهدة أوشالى (مايو سنة ١٨٨٩)، وبها وضعت الحبشة تحت نوع من الوصاية الايطالية؛ وحاولت إيطاليا خلال الأعوام التالية أن تتدخل فى شؤون الحبشة تدخلاً قوياً، وأن تفرض عليها إرادتها، واستطاعت أن تحتل بعض أنحائها المجاورة لأرترية، ولكن الشعب الحبشى لم يلبث أن ثار لهذا الاعتداء على أرضه وحرياته؛ وقاد منليك هذه الثورة الوطنية، فجردت عليه إيطاليا جيشاً ضخماً قوامه خمسون ألف مقاتل بقيادة الجنرال باراتيرى؛ ولكن الوطنية الحبشية غمرت كل شىء وسحقت الجيوش الايطالية فى موقعة عدوة الشهيرة من أعمال ولاية تجرى (٢ مارس سنة ١٨٩٦)، ولم تبق منها سوى فلول ممزقة، وحطمت آمال إيطاليا ومشاريعها الاستعمارية، وأرغمت على الاعتراف باستقلال الحبشة؛ واستمر منليك الثانى أو منليك الأكبر محرر الحبشة أعواماً طويلة يقودها فى سبيل الاصلاح والتقدم؛ وفى عهده نظمت الحبشة علائقها مع الدول الأوربية، واستطاعت أن ترغمها جميعاً على احترام استقلالها. وفى سنة ١٩٠٦ عقد تحالف ثلاثى بين بريطانيا العظمى وفرنسا وإيطاليا يقضى بالعمل المشترك بينها لحماية أراضيها ومصالحها فى تلك المنطقة، وينص على وحدة الحبشة واستقلالها، وينص أيضاً على تفوق المصالح الايطالية فى الحبشة. ولما توفى منليك الأكبر سنة ١٩١٣ خلفه حفيده «ليجى ياسو» بعهد منه؛ ولكن عوامل التفرق عادت تعمل عملها، واضطرمت الحرب الأهلية مرة أخرى، وعزل «ليجى ياسو» بعد خطوب وحوادث جمة، وتولت العرش «زوديتو» كبرى بنات منليك، وعين الرأس تفرى وصياً للعرش وولياً للعهد، فاستأثر بكل سلطة حقيقية. ولم تمض أعوام قلائل حتى أعلن نفسه أمبراطوراً إلى جانب «زوديتو»، ولما توفيت الأمبراطورة سنة ١٩٣٠، انفرد بالملك وتلقب باسم «هيلا سلاسى». وفى عهده قطعت الحبشة مراحل كبيرة فى سبيل التقدم والاتحاد الوطنى، والتحقت بعصبة الأمم (سنة ١٩٢٣)، وزار الأمبراطور إيطاليا سنة ١٩٢٥ فاستقبل فى رومة بحفاوة كبيرة، وعقدت على أثر ذلك بين البلدين معاهدة صداقة وتحكيم واعتقدت الحبشة أنها فى ظل عصبة الأمم، وظل الصداقة الايطالية الجديدة، قد أمنت مطامع الاستعمار ومشاريعه الغادرة

* * *

وكانت إيطاليا منذ نكبة «عدوة» قد وجهت مطامعها الاستعمارية شطراً آخر. وكانت طرابلس، هى المنطقة الوحيدة التى بقيت من شمال إفريقية بعيدة عن الاحتلال الأوربى؛ وطرابلس تواجه إيطاليا فى الضفة الأخرى من البحر، وفيها مناطق منبسطة شاسعة تصلح للحرث والاستعمار؛ ومنذ فاتحة هذا القرن تعمل إيطاليا لانتزاع طرابلس من قبضة تركيا الضعيفة، ولم تلق إيطاليا اعتراضاً من انكلترا أو فرنسا إذ كانتا تؤثران أن تحل فى طرابلس دولة ثانوية مثل إيطاليا وتخشيان أن تحتلها منافستها القوية ألمانيا. وهكذا استطاعت إيطاليا بموافقة انكلترا وفرنسا أن تمد عدتها لاحتلال طرابلس. وفى أواخر سنة ١٩١١ وجهت إيطاليا إلى تركيا بلاغاً نهائياً تزعم فيه أن مصالحها فى طرابلس قد عبث بها، وأتبعت ذلك فى الحال باحتلال ثغرى طرابلس وبنغازى، وتركت تركيا كعادتها طرابلس لمصيرها، ولم يتقدم للدفاع عنها سوى حاميتها الصغيرة؛ ولكن زمرة من الضباط البواسل بين ترك ومصريين استطاعوا أن يحشدوا رجال القبائل لقتال العدو المغير، واستطالت الحرب الطرابلسية زهاء عام (حتى أكتوبر سنة ١٩١٢) وانتصر الايطاليون فى النهاية وعقدوا الصلح مع تركيا، واعترفت تركيا بالحماية الايطالية على طرابلس. ولكن إيطاليا اشترت ظفرها غالياً بالمال والرجال، ولم تتقدم مع ذلك كثيراً داخل طرابلس، لأن رجال القبائل واصلوا الدفاع عن وطنهم، واستمرت إيطاليا تعانى أشد المتاعب فى طرابلس مدى أعوام طويلة. ولم توفق إلى إخماد القبائل إلا منذ سنة ١٩٢٥، إذ جردت عليها قوى جرارة. واستماتت

بأشنع وسائل الفتك الحديثة ، ومع ذلك فانها تقيم فى طرابلس على بركان من الحفيظة والبغض قد ينفجر لأول فرصة

ومنذ قيام الطغيان الفاشستى فى إيطاليا ، تضطرم إيطاليا الفاشستية بآمال وأطماع جديدة ، وتساورها حمى التوسع والفكرة الامبراطورية . وكانت إيطاليا قد حصلت منذ سنة ١٩١٥ بمقتضى معاهدة لندن السرية على وعود من فرنسا وانكلترا بأن تعوض عند دخولها فى الحرب بمنح استعمارية فى إفريقية ، ولكن الحلفاء نكثوا وعودهم فى مؤتمر الصلح ، واكتفوا بما استولت عليه إيطاليا فى أوربا من تراث النمسا . ولكن إيطاليا الفاشستية شددت فى طلب الوفاء بالعهود المقطوعة ، واستطاعت أن تحصل على مزايا استعمارية جديدة فى افريقية ، مثل استيلائها على واحة جغبوب المصرية وواحة العوينات السودانية بفضل نفوذ انكلترا ، واستيلائها على منطقة شاسعة من السودان الفرنسى بمقتضى المعاهدة الفرنسية الايطالية الأخيرة . ولما اعتقد موسولينى أنه سما بايطاليا وقواها العسكرية والمعنوية إلى أرفع مكانة ، اتجه بأنظاره إلى الحبشة ، ورأى أنه بغزوها واحتلالها يمحو وصمة الماضى المؤلم ، ويحقق حلم إيطاليا المحطم فى انشاء امبراطورية استعمارية كبيرة تشمل الأرتيرية والصومال والحبشة . وها نحن أولاء نشهد منذ أشهر قوى الفاشستية تتدفق بواسطة قناة السويس إلى شرق إفريقية ، وها هى تغزو أراضى الحبشة ؛ وهكذا يزمع الاستعمار الأوربى أن ينقض على آخر وحدة مستقلة فى إفريقية ليفترسها كما افترس سائر أخواتها من قبل ، وليعم الاستعباد جميع أرجاء القارة السمراء

وليس من موضوعنا أن نتحدث هنا عن مصاير هذه الحرب الاستعمارية الجديدة ، فان فى الحبشة شعباً باسلا استطاع منذ فجر التاريخ أن يذود عن حريته واستقلاله ، واستطاع حتى فى العصر الحديث أن يلقى على أولئك الذين يتربصون به اليوم درساً عميق الأثر ، ولكنا نلاحظ بهذه المناسبة أن إيطاليا الفاشستية تذهب بعيداً فى أحلامها القيصرية . أجل إن موسولينى يتشح اليوم بثياب قيصر ، ويفكر على طريقة الدولة الرومانية ، ويتصور أنه يستطيع بما اكتمل له من الاستعداد الحربى أن يخلق دولة القياصرة من جديد ، وأن يجعل من البحر الأبيض المتوسط بحيرة رومانية ، وأن يرد مصر — بعد الاستيلاء على الحبشة — إلى حظيرة الامبراطورية الرومانية الجديدة ؛ ولكن موسولينى ليس بقيصر ، وليست إيطاليا الفاشستية بالدولة الرومانية ، وهيهات أن يسمح العالم الحديث لهذه الفاشستية المحمومة بأن تضع لمحة من أحلامها المريضة موضع التنفيذ . ولقد كانت إيطاليا منذ جيلين فقط أمة مستعبدة ممزقة تجاهد لاستقلالها ووحدتها ، ولكنها اليوم ، وهى حديثة عهد بنعمة الاستقلال ، لا ترى بأساً من أن تجنى على استقلال شعب حر باسل ، لأنها فقط تحلم بافتتاحه واغتيال أرزاقه ؛ ولكنا نحن الذين لا يؤمنون بعظمة الفاشستية ، ولا بخلالها ووسائلها المثيرة ، نتوقع أن تكون هذه المغامرة الذميمة ـ وقد اجترأت الفاشستية على تنفيذ مشروعها ـ قبر الفاشستية وقبر مطامعها وأحلامها الدموية الأثيمة

« تم البحث » (＊＊＊)

٤ ـ الشعر *

فى صدر الاسلام وعهد بنى أمية

بقلم احمد حسن الزيات

٣ — خصائص الشعر فى العراق

وكأن الهجاء كان فى جرير غريزة يرمى الناس عنها لأدنى سبب وعلى غير معرفة ، فقد دخل على الوليد بن عبد الملك وعنده عدى بن الرقاع العاملى ، فقال له الخليفة : أتعرف هذا ؟ قال : لا يا أمير المؤمنين ، فقال : هذا رجل من عاملة ، قال جرير : التى يقول فيها الله : « عاملةٌ ناصبة تصلى ناراً حامية » ، ثم قال بيتاً قبيحاً وردَّ عليه عدىٌ بمثله ، فهجاه جرير بقصيدة منها ذلك البيت المشهور :

وابنُ اللبون إذا ما لُزَّ فى قَرَن ... لم يستطع صولةَ البُزْل القناعيس

ولعل ذلك راجع الى ميل فى طبع أمه الى هذا الضرب من البذاء والايذاء ، فاشتهت أن تراه فيه ، حتى صُورتْ لها تلك الأمنية فى الحُلُم ، فرأت وهى حامل به أن حبلاً نزل منها فصار يثب على الناس فيخنقهم واحداً بعد واحد ، فلما تأولت رؤياها قيل لها : إنك تلدين ولداً يكون شديد الهجاء والبلاء على الناس والشعراء ، فسمته لذلك جريراً ؛ وسواء أرأت أمه هذه الرؤيا أم افترتها ، فقد كان لها ولا ريب أثر قوى فى توجيه قريحته منذ طفولته

وهجاء جرير على الجملة ضعيف الفخر لبعد مستقاه فيه ، وما استطاع الفرزدق أن يعجزه إلا فى مشواره ، فهو يقول له بحق :

غلبتك بالمفقّأ والمعنّى ... وبيت المحتبى والخافقات

يريد بالمفقأ أو المفقئ قوله :

ولست ولو فقأت عينك واجداً ... أباً لك إن عُد المساعى كدارم

وبالمعنّى قوله :

وإنك إن تسمى لتدرك دارماً ... لأنت المعنّى يا جرير المكلّف

وبالمحتبى قوله :

بيتاً زرارة محتب بفنائه ... ومجاشع وأبو الفوارس نهشل

وبالخافقات قوله :

وأين تُقضَى المالكات أمورها ... بحق وأين الخافقات اللوامع

والفرزدق يريد بهذه الأبيات الاشارة الى القصائد التى تضمنتها وهى من عيون شعره ومتين فخره

وضعف جرير فى الفخر إنما يرجع الى الموضوع لا الى الأسلوب ، فانه أجل خصومه صياغة ، وأوفرهم بلاغة ، وأرقهم لفظاً ، وألطفهم مدخلاً ، وأكثرهم افتناناً . ولسهولة شعره وقلة غريبه نفق عند العامة والشعراء ، دون الرواة والعلماء

وهجاء هؤلاء الأقران الثلاثة إذا استثنينا منه المعانى الجُدُدة واللهجة الشديدة والتصوير البارع ، لم يخرج عن سمت الهجائين الفحول كالمخبل القريعى ، وحسان بن ثابت ، والحطيئة ، فى الابتداء بوصف الطلل والغزل ، والاعتماد على المفاخرة والمنافرة ، وتلمس العيوب من خبايا الماضى ، والانتقال المقتضب من معنى الى معنى . وأشد ما يعيب هجاء جرير والفرزدق كثرة التكرار ، فان كلا الرجلين إنما يهجو صاحبه بطائفة من الحوادث والصفات ذكرناها من قبل ، فلا نراه يعدل عنها ، ولا يكاد يزيد عليها ، وإنما يرددها فى كل قصيدة أو نقيضة فى أساليب شتى وقواف مختلفة ، فاذا قرأنا لكل واحد منهما واحدة منهن لا يضيرنا بعدها ألا نقرأ غيرها . كذلك إذا ألممنا بهجاء الأخطل والفرزدق وجرير فقد ألممنا بسائر الهجاء فى هذا الطور ، لأنه مصوغ من مادته ومضروب على مثاله

على أن أساليب شعراء العراق فى الهجاء الحزبى تختلف عنها فى الهجاء الفردى ، فبينما هم فى هذا لا يترفعون عن الهُجر ولا يتورعون عن الكذب تراهم فى ذلك يذهبون مذهب الجاهليين ، فيفاخرون بالنسب ، ويكاثرون بالعدد والمال ، ويؤثرون اللفظ الشريف والأسلوب العف ، بيد أنهم يغلون فى الفخر حتى ليجملونه فى الدين والحكم والعلم والموطن

قال أعشى همدان وهو من أنصار ابن الأشعث :

اكسع البصرى إن لاقيته ... إنما يُكسع من قل وذل

واجعل الكوفى فى الخيل ولا ... تجعل البصرى إلا فى النفل

* من الطبعة الجديدة لكتاب تاريخ الأدب العربى الذى صدر حديثاً

وإذا فاخرتمونا فاذكروا ... ما فعلنا بكمُ يوم الجمل
بين شيخ خاضب عثنونه ... وفتى أبيض وضاح رِفَلّ
جاءنا يخطر فى سابغة ... فذبحناه ضحّى ذبح الحمل
وعفونا فنسيتم عفونا ... وكفرتم نعمة الله الأجل

ومن هجائه السياسى الدينى قوله مرتجزاً فى الحجاج :

شطّتْ نوى مَن دارُهُ بالايوان
إيوان كسرى ذى القرى والريحان
إن ثقيفاً منهمُ الكذابان ... كذابها الماضى وكذابٌ ثان
أمكن ربى من ثقيف همدان ... إنا سمونا للكفور الفتان
حين طغى بالكفر بعد الايمان ... بالسيد الغطريف عبد الرحمن
سار بجمع كالدبى من قحطان ... فقل لحجاج ولى الشيطان
يثبتْ لجمع مذحج وهمدان ... فانهم ساقوه كأس الذيفان
وملحقوه بقرى ابن مروان

وهذا النوع من الهجاء قليل النفوق والبقاء ، كثير النفاق والرياء ، لطمع الشعراء فى حباء الخلفاء وإيثارهم فى الغالب سلامة البدن على سلامة العقيدة . وليس الهجاء الحزبى إلا صورة من صور الشعر السياسى الذى نفق فى هذا العصر ؛ وما نزعم بهذه التسمية أن الاسلاميين قد وقعوا على مذهب فى الشعر جديد القصد والغاية ، فان مساجلة الخصوم بالشعر كانت مألوفة فى عصر الجهالة مشروعة فى عهد النبوة ، إنما نقصد بالشعر السياسى طائفة من المعانى الجديدة استوحتها خواطرُ الشعراء من اختلاف الأحزاب فى الرأى ، وتنازع الزعماء فى الحكم . جاءت هذه المعانى الجديدة على النهج القديم فى صور مختلفة ، نستطيع أن نردها الى أربع : فقد أتت فى صورة المدح المشوب بالتحريض والتعريض كقول أبى العباس الأعمى :

أبنى أمية لا أرى لكمُ ... شبهاً إذا ما التفّت الشيعُ
سعة وأحلاماً إذا نزعت ... أهل الحلوم فضرّها النزع
أبنى أمية غير أنكمُ ، ... والناس فيما أطمعوا طمعوا ،
أطمعتمو فيكم عدوكمو ... فسما بهم فى ذاكم الطمع
فلو أنكم كنتم لقومكم ... مثل الذى كانوا لكم رجعوا
عما كرهتم أو لَرَدَّهم ... حذرُ العقوبة ، إنها نزع

وكقول الكميت :

بنى هاشم رهط النبى فاننى ... بهم ولهم أرضى مراراً وأغضب
خفضت لهم منى جناحىْ مودة ... إلى كنف عطفاه أهلٌ ومرحب
وأرمى وأُرْمَى بالعداوة أهلها ... وإنى لأوذَى فيهم وأؤنَّب

وكفة الأمويين فى هذا الباب أرجح ، لما تجمَّع لهم من الترغيب فى المال ، والترهيب بالملك ، والتمليق لهوى النفوس ، فمدحهم ونصرهم أكثر الشعراء فى عصرهم ، إما دفعاً لشرهم وإما طمعاً فى خيرهم ، حتى الذين شايعوا خصومهم من الزبيريين والعلويين لم يستطيعوا حبس لعابهم عن عطايا القصر

وقد يأتى الشعر السياسى فى صورة الهجاء كما مرّ ، وكما قال أعشى ربيعة لعبد الملك :

آل الزبير من الخلافة كالتى ... عجل النتاج بحملها فأحالها
أو كالضعاف من الحمولة حملت ... ما لا تطيق فضيعت أحمالها
قوموا إليهم لا تناموا عنهم ... كم للغواة أطلتم أمهالها
إن الخلافة فيكمو لا فيهمُ ... ما زلتمُ أركانها وثمالها
أمسوا على الخيرات قفلاً مغلقاً ... فانهض بيمنك فافتتح أقفالها

وقد يكون اقتراحاً لسياسة واستطلاعاً لرأى ، كقول مسكين الدارى ، وقد أوعز إليه معاوية أن يقترح البيعة من بعده لابنه يزيد ليعلم رأى قومه فى ذلك :

إليك أمير المؤمنين رحلتها ... تثير القطا ليلاً وهن هجود
ألا ليت شعرى ما يقول ابن عامر ... ومروان أم ماذا يقول سعيد
بنى خلفاء الله مهلاً فانما ... يبوئها الرحمن حيث يريد
إذا المنبر الغربى خلاه ربُّه ... فان أمير المؤمنين يزيد

فلما أتم إنشاده قال له معاوية : ننظر فيما قلت يا مسكين ونستخير الله

ومثل ذلك حدث من عبد الملك ، فقد أراد أن ينقل ولاية العهد من أخيه عبد العزيز إلى ابنه الوليد ، فأمر النابغة الشيبانى أن يقترح ذلك فى حضرة الناس فقال :

لَابنك أولى بملك والده ... ونجم من قد عصاك مُطَّرح
داودُ عدلٌ فاحكم بسيرته ... ثم ابن حَرْب فانهم نصحوا
وهم خيار فاعمل بسنتهم ... واحىَ بخير واكدح كما كدحوا

فابتسم عبد الملك ولم يتكلم ، فعلم الناس أن ذلك أمره

ثم يكون أحياناً جدلاً فى رأى أو بياناً لمذهب ؛ فمن الجدل السياسى ما وقع بين كعب بن جعيل والنجاشى فى المفاضلة بين على ومعاوية . فقد قال كعب :

أرى الشام تكره ملك العرا ... ق وأهلَ العراق لهم كارهينا
وكل لصاحبه مبغض ... يرى كل ما كان من ذاك دينا
وقالوا علىٌّ إمام لنا ... فقلنا رضينا ابن هند رضينا
وقالوا نرى أن تدينوا لهم ... فقلنا لهم لا نرى أن ندينا
وكلٌّ يسر بما عنده ... يرى غث ما فى يديه سمينا
وما فى علىٍّ بمستعتب ... ينال سوى ضمه المحدثينا
وليس براض ولا ساخط ... ولا فى النهاة ولا الآمرينا
ولا هو ساء ولا هو سرَّ ... ولا بد من بعد ذا أن يكونا

فلما بلغ ذلك الامام علياً أمر النجاشى أن يجيبه فقال :

دَعنَّ معاوى ما لم يكونا ... لقد حقق الله ما تحذرونا
أتاكم علىٌّ بأهل العراق ... وأهل الحجاز فما تصنعونا ؟
يرون الطعان خلال العجاج ... وضرب الفوارس فى النقع دينا
هموا هزموا الجمع جمع الزبير ... وطلحة والمعشر الناكثينا
فان يكره القوم ملك العراق ... فقِدْماً رضينا الذى تكرهونا
فقولوا لكعب أخى وائل ... ومن جعل الغث يوماً سميناً :
جعلتم علياً وأشياعه ... نظير ابن هند ألا تستحونا ؟

ومن البيان المذهبى قول كثير عزة يشرح عقيدة الشيعة فى الامامة :

ألا إن الأئمة من قريش ... ولاة الحق أربعة سواء :
علىٌّ والثلاثة من بنيه ... هم الأسباط ليس بهم خفاء
فسبطٌ سبط إيمان وبر ... وسبطٌ غيبته كربلاء
وسبط لا يذوق الموت حتى ... يقود الخيل يقدمها اللواء
تغيب لا يرى فيهم زماناً ... برضوى عنده عسل وماء

وكقول ثابت قطنة ، وهو من شعراء الأمويين ، يفصل مذهب الأرجاء :

يا هند فاستمعى لى إن سيرتنا ... أن نعبد الله لم نشرك به أحدا
نرجى الأمور إذا كانت مشبهة ... ونصدق القول فيمن جار أو عندا
المسلمون على الاسلام كلهم ... والمشركون استبوا فى دينهم قددا
ولا أرى أن ذنباً بالغ أحداً ... فى الناس شركاً إذا ما وحدوا الصمدا

إلى أن قال :

كل الخوارج مخطى فى مقالته ... ولو تعبد فيما قال واجتهدا
أما علىٌّ وعثمان فانهما ... عبدان لم يشركا بالله مذ عبدا
الله أعلم ما قد يحضران به ... وكل عبد سياقى الله منفردا

هذه جملة المعاريض التى عُرضت بها المعانى السياسية ، ولعلك تلاحظ من هذه الأمثلة أنها فى الغالب مهلهلة النسج ، نابية القافية ، بادية التكلف ، تشبه من بعض الوجوه نظم المتون . وعلة ذلك أن اتصالها بالوجدان ضعيف ، وأن أكثرها إنما يصدر عن طبع مكره ، أو شعور ممالق ، أو قريحة كابية ؛ والفرق بين شعر الأخطل والفرزدق وجرير ، وبين شعر هؤلاء الذين ذكرنا كالفرق بين من يعبر عن شعوره وحسه ، ويدافع عن قبيله ونفسه ، وبين من يتصل لسانه بقلب غير قلبه ، ويدفعه طمعه إلى ممالأة حزب غير حزبه

على أن من شعراء الأحزاب من قالوا الشعر عن عقائد دينية وعواطف نفسية ، ونوازع عصبية ، فكان لشعرهم جمال الاخلاص وروعة اليقين ، وقوة الحقيقة ، أولئك هم شعراء الشيعة والخوارج ، فحقٌّ علينا ونحن فى مقام البحث فى شعر العراق أن نديم النظر ساعة فى أشعارهم ، لنستشف من خلالها صور مذاهبهم وأفكارهم

(يتبع) الزيات

يوم افتتاح المدارس

صور دمشقية سوداء

طبق الأصل . . .

للأستاذ علي الطنطاوي

ذهبت أمس إلى المدرسة الأمينية (١) ، وهى المدرسة الاسلامية التى انحطمت على جدرانها ثمانية قرون وهى قائمة ، وماتت من حولها ثمانمائة سنة وهى حيّة ، ونشأت دول وانقرضت ، وبدئت تواريخ وختمت ، وتبدّلت الأرض وتغيرت ، وهى ماضية فى سبيلها ، عاكفة على عملها ، قد انقطعت عن الأرض من حولها ، واتصلت بالسماء من فوقها ، فماشت فى سماء العلم والناس يعيشون فى أرض المادّة . . .

دخلتها فاذا هى صامتة ساكنة ، لا يسمع فى أبهائها صوت مدرّس بدرس ، أو دارسين بتلاوة ، وإذا فى كل فصل من فصولها رَهْط من التلاميذ ، متفرّقون فى زوايا الفصل ، لا تنفرج شفاههم عن بَسْمَة السرور ، ولا تلمع عيونهم ببريق الجذل ، وإذا الأستاذ صاحب المدرسة قابعٌ فى غرفته ، يفكّر حزيناً ، وينظر آسفاً ؛ وهو الذى لم يألُ العمل جهداً ، ولم يسئ بالله ظنّاً ؛ فلما رآنى قام إلىّ يحدّثنى عن المدرسة ، ويعلمنى علمها ، فاذا المدرسة قد زلزلت فى مطلع هذا العام المدرسىّ ، لأن الناس قد مالوا عن المدارس الاسلامية وزهدوا فيها ، وزاغوا إلى المدارس الأجنبية وأقبلوا عليها ، وضنّوا على مدارسنا بدينار واحد فى العام ، ليمنحوا تلك ثلاثة أرباع الدينار فى الشهر . .

وأفاض الأستاذ فى البيان ، حتى امتلأت نفسى حَزَناً ، فخرجت حزيناً فمررت على (الكاملية) (١) فاذا هى فى خطب أشدّ ، ومصيبة أفدح ، فجزت بـ (الجوهرية) (٢) فاذا هى ماتت بمد شيخ الشام ، الشيخ عيد السفرجلانى ، وإذا فيها بنات يقرأن ويصحن ويلعبن ، فسلكت على (التجارية) (٣) فاذا دارها الكبيرة فى زقاق الفخر الرازى ، خلاء قواء ، وإذا هى قد انتقلت إلى الخيْضَريّة فاتخذت فيها دارا ، ورأيت (الجقمقية) (٤) القاعة التاريخية الجميلة ، والمدرسة الأثرية الجليلة ، فاذا هى قد اتخذت داراً . . .

فذهبت وأنا أحسّ الألم يقطع فى كبدى ، والأسى يحزّ فى قلبى ، ووددت لو أن الله قبضنى اليه قبل أن أرى مدارسنا الاسلامية ، لا تستطيع أن تعيش فى البلد الاسلامى ، ولا تجد من يشد أزرها ، ويأخذ بيدها . . . وأممت شارع بغداد ، أروّح عن نفسى بخضرة البساتين ، وجمال الكون ، وانطلاق الهواء ، ومنظر الجبل ، فما راعنى إلا أفواج من الناس قد ازدحمت على باب بناء كبير ، كأنه قلعة من القلاع ، أو قصر من القصور ، حتى لقد كادت تسدّ بكثرتها الشارع العريض : ما راعنى إلا الناس على باب (مدرسة اللاييك) ، يتدافعون

---

(١) قال أستاذنا العلامة محمد بك كرد على فى خطط الشام (٦ — ٧٧) : الأمينية : قبلى باب الزيادة المعروف اليوم بباب القوافين من أبواب الجامع الأموى ، وهى شرق المجاهدية جوار قيسارية القواسين بظهر سوق السلاح ، وكان به بابها (وبابها اليوم من سوق الحرير) وتعرف هذه المحلة قديماً بباب القباب ، وهناك دار مسلمة بن عبد الملك ، قيل إنها أول مدرسة بنيت بدمشق للشافعية ، بناها أتابك العساكر الملقب بأمين الدولة ربيع الاسلام أمين الدين كمشتكين بن عبد الله السفتكى المتوفى سنة ٥٤١ وقد بنيت المدرسة سنة ٥١٤ الخ . . . قلت : وجاء ذكرها فى ترجمة الغزالى فى طبقات السبكى لما زار دمشق ، ودرس بها ابن خلكان وغيره ، وكان لها شأن بين مدارس دمشق كبير

---

(١) قال فى خطط الشام (٦ — ٧٥) : هى الأتنكزية دار قرآن وحديث شرق حمام نور الدين الشهيد وراء سوق البزورية أنشأها نائب السلطنة تنكز سنة ٧٣٠ . قلت : وسميت الكاملية الهاشمية لأن الأستاذ الجليل الشيخ كامل القصاب جدد بناءها وجعلها مدرسة ثانوية فكانت حيناً من أرقى مدارس دمشق

(٢) قال فى الخطط (٦ — ٩١) الجوهرية شرق تربة أم الصالح داخل دمشق بحارة بلاطة المعروف اليوم بزقاق المحكمة أنشأها الصدر نجم الدين بن عباس التميمى الجوهرى سنة ٦٧٦ ، وكان بعضهم أواخر القرن الماضى قسمها ثلاث دور الخ ... قلت : وقد أعادها مدرسة وجدد بناءها الشيخ عيد السفرجلانى رحمه الله رحمة واسعة

(٣) مدرسة مستحدثة أسسها طائفة من تجار دمشق وكانت قبيل الحرب وأوائله أرق مدرسة ثانوية فى دمشق

(٤) قال فى الخطط (٦ — ٩١) هى شمال الجامع الأموى أسسها سنجر الهلالى وولده شمس الدين فانتزعها الملك للناصر حسن سنة ٧٦١ وأمر بعمارتها فبنيت بالحجر الأبلق وجاءت فى غاية الحسن واحترقت فى فتنة تيمور فجدد بنيانها سيف الدين جاقان وخص الخانقاه بالصوفية وأضاف إليها مدرسة للأيتام وتربة الخ .. قلت : وفى هذه المدرسة تخرج أكثر رجال دمشق المعروفين اليوم على يد الشيخ عيد رحمه الله

ويتزاحمون ، كأنهم على باب الجنة ، فكل يطمع أن يسبق إليها ، وكلما فتح الباب لواحد ، لحظته العيون بالغيظ ، ورمقته بالحسد . . . فسألت قوماً أعرفهم ينظرون كما أنظر ، ماذا هناك ؟ فقالوا : هم المسلمون يريدون أن يسلموا أبناءهم إلى رجال اللاييك ليصبوا فى قلوبهم ما يشاؤون من عقائد باطلة فى الدين ، وعواطف زائفة فى الوطنية ، وزهادة فى اللغة ، وكره للتاريخ الاسلامى ، والقومية العربية ، ويدفعون اليهم الأموال الطائلة ، وما يشترون بها إلا الكفر لأبنائهم ، والزيغ والالحاد ، وحبّ الغريب ، وبغض القريب ، وما يشترون بها إلا أعداء لهم ولأوطانهم ، يحاربونهم فى دورهم ، ويغزونهم فى أخلاقهم وعقائدهم ، وهم قد انحدروا من أصلابهم ، وخرجوا من ظهورهم ؛ أفرأيت بلاء أشدّ ، وخزياً أكبر ، من أن يحاربونا بأبنائنا ، ويأخذوا على ذلك أموالنا ؟ . . .

فقلت : لا والله ! وسرت ، أخشى أن يتمزق والله من الألم كبدى ، فمررت على (مدرسة الفرير) فاذا الجموع أكثر ، والازدحام أشدّ ، والمسلمون يرجون الخورى . . . أن يُنسى أبناءهم القرآن ، ليحفظهم الانجيل ، ويبغض إليهم محمداً وأبا بكر وعمر ، ويحبّب إليهم بطرس ولويس ونابليون . . . فسرت مسرعاً ، لا يطول بى وقوف فتحرقنى نار الحزن ، وأخذت طريقى إلى مدرستى ، أسلك اليها شارع البرلمان ، فاذا على باب (مدرسة الفرنسيسكان) أمام الكنيسة الفخمة ، جمهور من المسلمين لا يحصيهم عدّ ، يأخذون بأيدى بناتهم ، ليدخلوهن إليها . . . فعدت أدراجى إلى شارع الصالحية فأخذت حافلة (الترامواى) إلى مدرستى فى حىّ المهاجرين ، فى لحف جبل قاسيون

* * *

ولم يستقرّ بى فى المدرسة مقام ، حتى أقبل علينا شيخ من مشايخ المسلمين ، على رأسه عمة بيضاء كأنها برج ، وحول يده كم كأنه خرج ، تتدلى منه سبحة لا يفتأ يعدّ حباتها ويلعب بها ، وقد يخطئ مرّة فيسبّح عليها ، يجرّ بيده ولداً ، فخذاه مكشوفان وعلى رأسه كمّة [1] فقلت له :

(١) الكمة هى (البريه) وهى جنس من القبعات فتن بها الناس عندنا فألبسوها أبناءهم فصار يهون عليهم إذا كبروا لبس القبعة ، فاذا لبسوها عرفوا لها حقها ، وما حقها إلا التفرنج ، وترك الشرقية بالكلية

ـ ما هذا ياشيخ ؟ أعورة من أعلى ، وعورة من أسفل ؟

ـ قال : وما ذاك ؟

ـ قلت : ألم يكفك أن تكشف عورته ، وأنت تذكر الله ، وتتلو كتابه ، وتظهر منه ما أمر الله بستره ، حتى تضمّ إلى العورة عورة أخرى تجىء من فوق رأسه ، فتلبسه القبعة ؟

ـ فقال (ولوى لسانه وتفيهق وتشدّق) : ما هى بعورة فى مذهبنا

ـ قلت : وما مذهبك يا مولانا ؟

ـ قال : مذهب الامام مالك

ـ قلت : ذاك لمن لا يفرّق بين عورة الملتحى وعورة الأمرد ، هذا الذى فى مذهب مالك ، لا مع مثل ابنك الذى لا تؤمن معه الفتنة

وإذا أنت فهمت مذهب مالك بهذا الفهم الأعوج ، أفليس فى الناس فسّاق ، يأكلون عرض ابنك على مذهب مالك ، ما دام مذهب مالك حجة يحتج بها كل ماجن وفاسق . . . رحم الله مالكا وجمل افتراءكم عليه حسنات له

* * *

وتركته وقمت إلى قسم الشهادة الابتدائية ، أرى التلاميذ . . . فاذا أكثرهم لا يستر إلا نصفه الأعلى ، وإذا هم متأنثون مائلون مميلون ، فجعلت أسألهم من هنا وهناك ، فقلت :

ـ ما شروط الصلاة ؟ من يعرفها منكم ؟

ـ قالوا : لا نعرفها ، درس الديانة ليس من دروس الامتحان ، فلا نحفظه

ـ قلت : فماذا قرأتم فى السنة الماضية ؟

ـ قالوا : وماذا نقرأ ، عندنا ساعة واحدة فى الأسبوع . . .

ـ قلت : فلنبحث فى التاريخ ، من يحدثنا عن وقعة اليرموك ، أو القادسية ؟

ـ قالوا : ما قرأناها . . . نحدثك عن سيرة نابليون ، ووقعة واترلو . . . هذا ما قرأناه وسنقرؤه فى هذا العام . . .

* * *

وبعد . . . فهذا طرف من الحقيقة ، وقليل من كثير من الواقع ، نسوقه بلا تعليق !

(دمشق) علي الطنطاوى

من تراثنا الأدبي

١ ـ أبو العينـــاء

بقلم محمود محمود خليل

أبو العيناء ونسبه

أبو العيناء كاتب منشئ من كتاب القرن الثالث الهجري الحافل بأساطين الأدب وجلة العلماء ، ولكنه كاتب ضرير البصر من العباقرة الذين سجل لهم التاريخ الذكر الحسن ، أمثال أبي العلاء المعري وبشار بن برد وأضرابهما ، وكأن سنة الله قد جرت في الخلق أن يقترن فقد البصر غالباً بالنبوغ والعبقرية ، ولن تجد لسنة الله تبديلا . وإذا كان القدر قد أتاح لشاعر المعرة فطاحل الكتاب والأدباء يدرسونه ويمحصونه ، ويستخلصون فلسفته من شعره ، فلا أقل من أن يدرس أبا العيناء الضرير شخص مثلي ، وفي اعتقادي أن شخصية أبي العيناء جذابة فكهة كما ستري ، وهي تفضل شخصية شاعر المعرة العبوس المتبرمة من هذه الناحية

يحدثنا الرواة أن أبا العيناء اسمه أبو عبد الله محمد بن القاسم ابن خلاد بن ياسر بن سليمان ، وأصل قومه من بني حنيفة من أهل اليمامة ، ولحقهم سباء في خلافة المنصور العباسي ، فلما صار ياسر في يد المنصور أعتقه ، فهم موالي بني هاشم

مولده ونشأته

وُلد أبو العيناء بالأهواز في آخر المائة الثانية للهجرة ، ونشأ بالبصرة ، وبها طلب الحديث وكسب الأدب ؛ وكان على استعداد تام للحرص على كل ما يلقى عليه فأثمرت فيه تربيته بالبصرة الثمر الطيب ، وأخرجته رجلا فذاً في الحياة ، مثقفاً إلى درجة حسنة ، ولقد هيأته تلك الثقافة إلى رواية الأخبار الطريفة ، والملح اللطيفة ، والأشعار الجيدة ، حتى لقد بلغ به الأمر أن يعرض عليه المتوكل العباسي أن يكون نديمه على شرابه ، ويتمنى عليه لو يجيبه ، فيمنعه عمى بصره عن الوصول إلى تلك المرتبة السنية ، وإن كان قد حاز منزلة سامية من قلب المتوكل . ونرى الأصفهاني في كتابه الأغاني يجعله من رجال سنده في جملة أخبار أتى بها في كتابه ، يقول في سند له : أخبرني قدامة عن أبي العيناء عن العتبي

ويمضي أبو الفرج فيروي لنا حديثاً طويلاً بهذا السند في أمر زواج ليلى العامرية برجل من ثقيف وشعر مجنون بني عامر حين بلغه ذلك ، وسند آخر أتى به أبو الفرج . قال أخبرني محمد بن خلف ، قال حدثنا أبو العيناء عن القحذمي عن أبي صالح السعدي ، ثم يمضي في رواية خبر طويل يتعلق بعمر بن أبي ربيعة ، وكذلك ينقل عنه الأبشيهي صاحب كتاب المستطرف ، وغير هذين المؤلفين كثير ، وعد المؤلفين لأبي العيناء من الرجال الذين يعتمد عليهم في رواية الأخبار والأسمار ما هيأه لذلك إلا نشأته بين أولئك الفطاحل من البصريين الذين تغذى بلباب علومهم ، واستصفى ثمار عقولهم

كان أبو العيناء إذاً يتردد على علماء البصرة يأخذ عنهم . فهل كان في هذا الوقت أعمى أم بصيراً ؟ يقول الرواة إنه ما عمى إلا بعد أربعين عاماً من عمره ، وهو زمن ليس بالقليل يكون أبو العيناء قد أخذ فيه بحظ وافر من متعته ببصره ، والغريب في هذا حقاً أن الرواة يسطرون لنا أسطورة عن سبب عماه ؛ وهي أن جده الأكبر لقى علي بن أبي طالب (ض) فأساء مخاطبته . فدعا عليه وعلى ولده بالعمى ، فكل من عمى منهم فهو صحيح النسب ، فهذا الخبر إن صح ينبثق منه شعاع من الحقيقة يتحكم فيه قانون الوراثة ، فقد ورث عن آبائه سلاطة اللسان

قال أبو العيناء حاكياً عن نفسه : أنا أول من أظهر العقوق لوالديه بالبصرة ، قال لي أبي إن الله قد قرن طاعته بطاعتي ، فقال تعالى : « أن اشكر لي ولوالديك » فقلت يا أبت إن الله تعالى قد أمنني عليك ولم يأمنك علي . فقال : « ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم » ، ولم يقف بسلاطته تلك على أهله وذويه ، فإن الناس كلهم كانوا يخافون معرة لسانه ، والسهام التي يقذفها في كلامه ، وتستطيع أن تجد له أخبارا كثيرة في كتب الأدب تؤيد ما ذهبنا إليه ، فهذا موقفه مع فتى ماجن أراد العبث به مرة . فقال له يا أبا العيناء متى أسلمت ؟ قال حين أسلم أهلك وأبوك الذين لم يؤدبوك . . . الخ ذلك الخبر . وموقف آخر مع عيسى بن فرخان شاه الذي كان يتولى الوزارة ويتيه فيها على أبي العيناء ، فلما عزل لقيه أبو العيناء في الطريق فسلم عليه وأحفى فقال له : والله لقد كنت أقنع بإيمائك دون بيانك ، وبلحظك دون لفظك ، فالحمد لله على ما آلت إليه حالك ، فلئن كانت أخطأت فيك النعمة ، فلقد أصابت فيك النقمة ، ولئن كانت الدنيا أبدت

مقابحها بالاقبال عليك ، فلقد أظهرت محاسنها بالانصراف عنك ، ولله المنة إذ أغنانا عن الكذب عليك ، ونزهنا عن قول الزور فيك ، فقد والله أسأت حمل النعم ، وما شكرت حق المنعم

وموقف ثالث يقفه أبو العيناء مع بعض الوزراء في مجلسه إذ يمدح البرامكة ويذكر سخاءهم وجودهم فيقول الوزير إنما هذا من تصنيف الوراقين ، وكذب المؤلفين ، فقال أبو العيناء : فلم لا يكذب الوراقون عليك أيها الوزير ؟ فأسكته وعجب الحاضرون من إقدامه عليه

فهذه الأخبار وغيرها كثير تعطينا فكرة صحيحة عن سلاطة لسانه التي امتاز بها بين الأدباء المعاصرين له ، حتى كان الوزراء وأرباب المناصب وغيرهم يخافونه ويتقون لسانه بل يدارونه ، وتلك اللسانة كما قلت كانت موروثة عن آبائه ، فقد علمنا كيف أقدم جده الأكبر على علىّ بن أبي طالب (ض) ، وأساء مخاطبته حتى دعا عليه ، وحتى استجيبت دعوته فيه وفي أحفاده من بعده . ولكن أبا العيناء يعتذر عن بذاءة لسانه حين سأله المتوكل على الله بقوله بلغني عنك شر . فقال يا أمير المؤمنين إن يكن الشر ذكر المحسن باحسانه ، والمسيء باساءته ، فقد زكى الله وذم ، فقال في التزكية : (نعم العبد إنه أواب) ، وقال في الذم : (هماز مشاء بنميم مناع للخير معتد أثيم) وقال الشاعر :

إذا أنا لم أمدح على الخير أهله ... ولم أذم الجبس اللئيم المذمما

ففيم عرفت الخير والشر باسمه ... وشق لى الله المسامعَ والفما

وإن كان الشر كفعل العقرب التي تلسع السنيّ والدنيّ بطبع لا يتميز فقد صان الله عبدك عن ذلك

وفي الحق إن أبا العيناء لم يكن يسفه على أحد من الناس إلا على من يتعرض له باساءة ، فاذا تجرأ على هذا شخص فويل له من لسانه ، ولقد أجاب المتوكل إذ قال له كم تمدح الناس وتذمهم فقال ما دام المحسن يحسن والمسيء يسيء ، وغرضه بهذا أنه يعطى كل إنسان ما يستحقه من مدح أو ذم ، ولقد مدح أناساً كثيرين ولكنه ذم أكثر ممن مدح ، وإنا وإن كنا نعتقد أن أبا العيناء قد أسرف في الذم اسرافا كثيراً ، فان من الحق علينا أن نعترف أن هناك عوامل أخرى جعلته يسرف هذا الاسراف ، وسنعرف بعد ما هي هذه العوامل

(يتبع) محمود محمود خليل

في الأدب الانجليزي

٣ـ الكائنات الغيبية

في شعر شكسبير

The Supernatural

بقلم خيري حماد

لم يحاول شكسبير اظهار شخصيته من خلال رواياته ، ولكن كارليل يقول عنه : « إن روايات شكسبير هي كنوافذ متعددة يظهر من خلالها ما كان يدور في نفسه من الأفكار والخواطر » . ومن كل رواية من رواياته يمكننا أن نتبين الحالة العقلية التي كان فيها لما أنشأها وكتبها . ففي هملت لم يكن تفكيره محصوراً إلا في البحث في الأشباح ، بينما كان في مكبث مشتغلا بالسحر والسحرة

وفي كل من روايتيه تتحقق النبوءات التي تتنبأ بها الأشباح والساحرات . ولكن هناك ثمة فرقاً ضئيلاً بين كل من الروايتين ، وذلك الفرق هو أن نبوءات الشيخ في هملت هي من أمور الماضي بينما هي في مكبث من أمور المستقبل

وقد قال جبسن عند كلامه عن العاصفة ما يؤكد هذه النظرية ، فهو يقول : « هل كان في استطاعة شكسبير أن يجعل من جميع هذه النبوءات الخيالية حقائق راهنة إن لم يكن يعتقد الاعتقاد كله بهذه الأمور من عالم الخيالات والأشباح ؟ » (١)

وفي رواية الملك هنري الرابع نرى هتسبر (Hotsper) يعارض اعتقاد جلندور (Glendower) أن في استطاعته أن يسخر الأرواح والشياطين في مهامه الخصوصية ، فهو يتحداه بقوله : « إنك تعتقد أن في امكانك مخاطبة الأرواح ولكن هذا في استطاعتي أنا وفي استطاعة أي رجل آخر . وقد فاتك ياهذا أنها لا تجيبنا عند ما ندعوها أو نخاطبها »

وهذا الشك لا يلبث أن يزول عند ما يقدم جلندور البرهان الكافي فتخاطبه الأرواح كأنه فرد من أفراد جنسها ؛ وهذا الاعتقاد بالخرافات كان مستولياً على شكسبير لدرجة عظيمة حتى إنه كان يضع المجبين والمجانين والشعراء في مصاف من يستطيعون الاتصال بالعالم العلوي ، وفي رواية هنري السادس نراه يجمع بين ما هو في عالم العقائد وما هو في عالم الخرافة ، وقد لخص عقيدته في رواية هملت إذ يقول : إن هناك في السماء أموراً عدة يا هوراثيو Horatis مما ليس في استطاعة العالم البشري فهمها أو التفكير فيها »

أو حين يقول في رواية أخرى :

« يقولون إن زمن المعجزات قد انتهى وآن لنا أن نفكر في كياننا الفلسفي فقط فنجعل من الخرافات مسائل عصرية يقبلها العقل ويسيغها المنطق . ولما كنا نستهزئ بالمخاوف والأشباح متسترين برداء من العلم والمعرفة فعلينا ألا نكون عرضة لمخاوف غير مرئية وهذا مما لا يتأتى لنا » (١)

إن في استطاعتنا أن نستنتج من هاتين الفقرتين السابقتين أن شكسبير كان يؤمن بالخرافات والغيبيات ، فهناك عدد غير قليل من الأمور التي ليس في استطاعتنا فهمها أو التعبير عنها . فلا يمكن مثلاً انكار وجود عدد من المعجزات التي يكثر حدوثها فوق ظهر هذه البسيطة ، وما العالم العلوي إلا محيط لا يمكننا حل ألغازه وتفهم معانيه . فان من طبيعة البشر أن يكونوا خاضعين لعالم غير عالمهم يجهلونه ويخافونه ، وما المحاولات التي يقوم بها العلماء لاسناد كل ظاهرة طبيعية إلى عاملها العلمي إلا محاولات خالية من الاقناع وطريق البرهان

قلنا إن شكسبير كان يؤمن بعدد من هذه المخلوقات المغيبة ، وقد جمعها في رواياته محاولا اظهارها بصور رائعة من الخيال والسمو الفكري ، وأولى هذه الأنواع وأهمها هي ظاهرة الجنيات

الجنيات (Fairies)

إن هذه الجنيات هي بقايا المعبودات والآلهة المحلية التي كانت سائدة على القرى الانكليزية في عصر من العصور ، وما العقيدة الشائعة أن هذه الجنيات قد تسلسلت من الآلهة اليونانية والرومانية القديمة إلا حديث خرافة لا أصل له من الصحة والصدق . وهناك نفر غير قليل من النقاد يرجعونهن إلى أصل بشري ، فما هن إلا ذرية سكان بريطانيا الأقدمين الذين طردهم الكلت عند استيلائهم على البلاد ، فلم يجدن غير الغابات ملجأ يلجأن اليه ومكاناً يستطعن العيش فيه مدة حياتهن

(1) Gibson Sh Use of the Supernatural P. 6

(1) Bll is Well . . . II 3 . 1

القادمة ، وأصبحن يعرفن فيما بعد بالجنيات

وهذه المخلوقات العجيبة كانت على أنواع عدة ، فمنها ما هو أسود اللون ، ومنها ما هو أخضره أو أبيضه أو رماديه ، وفى كثير من الروايات يصفهنّ شكسبير ، فهو يقول فى موضع من روايته (نساء وندسور المرحات) واصفاً إياهن بقوله : إنهن سوداوات اللون أو رمادياته أو خضراواته أو بيضاواته

وكن لا يخرجن إلا فى غسق الليل ، فيعقدن مجالس الأنس والطرب تحت ظلال الأشجار ، بينا أهل الأرض نيام . وفى (العاصفة) نرى بروسبيرو يخاطب إحدى هذه الجنيات قائلا : « ستخرجين الليلة ويصيبك فيها برد شديد ، قد يؤدى إلى تشنج فى أعصابك فتألمين منه أشد الألم ، وستحيط بك الجنيات فى الليل فينفذن فيك ما لهن من قوة »

تعيش الجنيات فى الحقول المغطاة بالأزهار والرياحين ، أو فى الأماكن الخلوية من اليابسة والماء ، سيان عندهن التلال والوديان ، الغابات والمروج ؛ وكثيراً ما تراهن بجوار الينابيع وضفاف الأنهار ؛ أو فى أعماق المحيطات والبحار ، وقد وصف الشاعر أحد هذه الأمكنة بقوله : « إنى لأعرف شاطئاً تهب عليه الرياح ، وتنبت فيه أزهار الياسمين والزنبق محاطة بالورود الجميلة المنظر » أما الملكة فهى تود الاجتماع فى جميع الأماكن التى اعتدن فيها اللقيا ، فهى تلقى الأوامر على أفراد رعيتها قائلة : « لنلتق على التلال أو فى الوديان ، بجانب الينابيع المرصوفة ، وعلى شواطئ الأنهار الذهبية ، أو فى أعماق البحار الرملية ، وهناك نحتفل برقصنا على موسيقى الرياح الهائجة »

إن أشهر أسماء هـذه الجنيّات التى ذكرها شكسبير فى رواياته ثلاثة أولها أبيرون (Oberon) الذى يعتبر ملكا على هذه الطائفة من المخلوقات ؛ أما تيتانيا (Titania) فكثيراً ما يطلق عليها اسم الملكة ماب (Queen Mab) وهى تعتبر باعثة للأحلام كما يظهر من رواية روميو وجوليت : « انى لأعتقد أن الملكة ماب كانت معك فهى وسيطة الجنيات وملكتهن لا يزيد حجمها على حجر صغير أو إصبع من أصابع الرجال ، وكثيراً ما تصبح بشكل ذرة ترتكز على أنوف الناس عند نومهم » فهى تبعث الأحلام والأخيلة اللذيذة ، ولكنها لسوء حظ البشر فى صراع دائم مع زوجها الملك أبيرون ، ومن هذا الصراع قد يتأتى ما يتأتى من الشرور والأضرار لبني البشر . أما آخر هذه الأسماء وهو بك (Puck) فهو رسول الملك وحامل أوامره

فى الفقرة السابقة رأينا الملكة ماب بحجم صغير ، ومن هذا يمكننا أن نستنتج أن الجنيات ذوات حجم ضئيل ، وقد وصفهنّ شكسبير فى رواية العاصفة بقوله « حيثما تهبط النحل أهبط أنا وفى استطاعتى أن أنام داخل جرس من الأجراس فأتخلص من نعيق الغربان والبوم » . وقد يتمكنّ من الظهور بحجم أصغر فيختفين داخل كؤوس الشراب

ولا ينتظر من هـذه المخلوقات الضئيلة إحداث أمر سيئ للبشرية لولا أنها فى نزاع دائم مستمر . نعم إن صفاء نيتهنّ كان سبباً فى خلق بعض الآلام إلا أنهنّ كنّ لا يلبثن أن يزلن ما أحدثن بمهارة وروية . وكثيراً ما نراهن يتعاطين المزاح فيروعن فتيات القرية ويخفنهن فرأينا إيموجن (Imogen) فى سمبالين (Cymbeline) تخاف هـذه المخلوقات وتسأل وصيفتها أن تلازمها لتحميها منهن فهى ترجوها قائلة « أرجوك حمايتى من الجنيات ودلاج الليل »

ولكنا نراهن فى الغالب يحفزهن حب الخير وعمله فيقمن بأعمال جمة لفائدة البشرية ونفعها ولا يعد روبن هود (Robinhood) إلا فاعلاً من فعلة الخير ومريديه . فهو يتلقى الأوامر من مليكه ويعرضها على أفراد الشعب وهو يستمع إلى أبيرون حين يقول : « على كل جنى أن يقف بالباب المعين له ، وعليه أن يبارك من فى الغرفة ويدعو لهم بالسلام والطمأنينة » . وكثيراً ما دعت الجنيات للأزواج الحديثى العهد بالسرور والبركة وتلقفن أطفالهم بعين الرعاية والعطف حتى يشبوا ولم يعرفوا الألم قط . وهاهو أبيرون يقول « دعنا نذهب إلى فراش كل عروس جديدة فنبارك ها فتلد غلاماً يلازمه السرور وترعاه العناية »

(يتبع) خيرى حماد

كتب ابن المقفع

للأستاذ بشير الشريق

١ — أبو محمد عبد الله بن المقفع كاتب بليغ مشهور امتاز بأسلوبه الجميل السهل الرشيق ، لا أعرف بين أدبائنا القدماء والمحدثين من هو أقدر منه على الكتابة والتعبير إلا عمرو بن بحر الجاحظ . كان ماهراً فى تصوير طبائع الناس وأهوائهم وميولهم ، احتوت كتبه الحكمة والأدب والأمثال ، كما احتوت قواعد عامة فى الادارة والسياسة والأخلاق

٢ — وهو فارسى الأصل اسمه فى الفارسية « روزبة » ولد فى « خوز » من أعمال خراسان حوالى سنة ١٠٦ هجرية . ونشأ فى البصرة ، وقد ظل يدين بالمجوسية دين آبائه حقبة من الزمن ، ثم اعتنق الاسلام وقد بلغ السابعة والعشرين من عمره ، قال الهيثم بن عدى يذكر قصة اسلامه : « جاء ابن المقفع إلى عيسى بن على عم المنصور ، فقال له : قد دخل الاسلام فى قلبى وأريد أن أسلم على يدك ، فقال له عيسى : ليكن ذلك بمحضر من القواد ووجوه الناس ، فاذا كان الغد فاحضر ؛ ثم حضر طعام عيسى عشية ذلك اليوم ، فجلس ابن المقفع يزمزم على عادة المجوس فقال له عيسى : أتزمزم وأنت على عزم الاسلام ؟ قال : أكره أن أبيت على غير دين »

٣ — وكما اشتهر عبد الله أنه كاتب كبير ، فقد اشتهر أنه مترجم قدير لا تلمح فى ترجمته أثر العجمة ؛ فهو أول من اعتنى فى الاسلام بترجمة الكتب القيمة ، ترجم كتب أرسطو الثلاثة فى المنطق ، ونقل كتاب « التاج فى سيرة أنوشروان » ، وقيل إن كتاب « كليلة ودمنة » كان باللغة الفارسية فنقله إلى اللغة العربية . قال الباقلانى : « ابن المقفع ينحط إذا كتب ويعلو إذا ترجم ، لأن له فى الأولى عقله وفى الثانية كل المعقول »

وقال الجاحظ : « كان ابن المقفع مقدماً فى بلاغة اللسان والقلم والترجمة »

٤ — لابن المقفع من الكتب كتابا « الأدب الصغير والكبير » ، وكتاب « الدرة اليتيمة » ، وكتاب « التاج فى سيرة أنوشروان » ، وكتاب « كليلة ودمنة » ؛ وكتب فى المنطق . وهذه الكتب منها الموضوع ومنها المنقول ، فكتابا « الأدب الصغير والكبير » و « الدرة اليتيمة » من تأليف ابن المقفع ؛ أما كتب المنطق وكتاب « التاج » فهى منقولة عن الفارسية التى يجيدها الكاتب اجادة عجيبة ، واختلف أهل الأدب فى حقيقة كتاب « كليلة ودمنة » ، فمنهم من قال إن ابن المقفع هو الذى وضعه ، وأنه نحله الهند القدماء الترغيب أهل زمانه بمطالعته ، ومنهم من قال إنه لم يضعه ، وإنما كان باللغة الفارسية ونقله إلى العربية

٥ — وبعد فارى أن أحدث القارئ عن أشهر كتب ابن المقفع وأكثرها متعة وقيمة ، وهى كتاب « الدرة اليتيمة » وكتاب « الأدب الصغير » وكتاب « كليلة ودمنة » ، وسيقتصر بحثى على تعريف القارئ بهذه الكتب تعريفاً اجمالياً ، ثم على عرض أجمل ما فيها من صور أدبية واجتماعية مع شرح موجز :

٦ — الدرة اليتيمة التى لم يصنف فى فنها مثلها تقع فى ثمانين صفحة ، وتشتمل على فصلين كبيرين ، الأول منهما خاص بعلم السياسة ويحتوى على آراء قيمة حكيمة فى ادارة الحكومة ، وواجبات الحاكم ، وعلى وصف دقيق لما يجب أن يكون عليه الأمير من القوة والعدل ، والبطش والحلم ، والتثبت والعلم ؛ والثانى خاص بعلم الأخلاق ، يشتمل على قواعد دقيقة فى التربية والاجتماع ، وعلم النفس وعلى نظرات صادقة فى الناس وشؤونهم

حل ابن المقفع فى « درته اليتيمة » مسألة كبيرة تلخص فى كيف يتسنى للأمير أن يحفظ ملكه ويثبت سلطانه ، نقول : إن هذه المسألة قد لفتت نظر كاتب فلورنسى يدعى « مكياڤيللى » فى القرن الخامس عشر ١٤٦٩ — ١٥٢٧ ، فوضع كتاباً سماه « الأمير » شرح فيه هذه المسألة شرحاً لا يكاد يختلف فى أصوله ومعانيه عن شرح ابن المقفع ؛ وكانت ضجة عظيمة حول الكتاب فى الدوائر العلمية والسياسية الأوربية ، وكان أن أصبح مكياڤيللى بفضل كتابه الذى اعتبره الغربيون أول كتاب فى العلم السياسى ، من أعاظم رجال التاريخ ؛ ولما كان المجال لا يسع الكلام باسهاب اكتفى بقولى : إن من يطلع على « الدرة اليتيمة » يرى أن ابن المقفع بحث فى أصول سياسة الملك بحثاً مستفيضاً ممتعاً ، والى القارئ صوراً من « الدرة اليتيمة » :

٧ — قال ابن المقفع :

أحق الناس بالتوقير الملك الحليم العالم بالأمور وفرص الأعمال ومواضع الشدة واللين والغضب والرضاء والمعالجة والأناة الناظر

فى الأمر يومه وغده وعواقب أعماله

اعلم أن الملك اثنان : ملك حزم وملك هوى ، أما ملك الحزم فانه يقوم به الأمر ولايسلم من الطعن والتسخط ولن يضر طعن الذليل مع حزم القوى ، وأما ملك الهوى فلعب ساعة ودمار دهر

لا يضيعن الوالى التثبت عند ما يقول وعندما يعطى وعند ما يفعل ، فان الرجوع عن الصمت أحسن من الرجوع عن الكلام ، وإن العطية بعد المنع أجمل من المنع بعد الاعطاء ، وإن الاقدام على العمل بعد التأنى فيه أحسن من الامساك عنه بعد الاقدام عليه ؛ وكل الناس محتاج إلى التثبت ، وأحوجهم اليه ملوكهم الذين ليس لقولهم وفعلهم دافع ، وليس عليهم مستحث

إن الوالى لاعلم له بالناس إلا ما قد علم قبل ولايته ، فأما إذا ولى فكل الناس يلقاه بالتزين والتصنع ، وكلهم يحتال لأن يثنى عليه عنده بما ليس فيه

لا يمتنع الوالى وإن كان بلغ الرأى والنظر من أن ينزل عنده كثير من الأشرار بمنزلة الأخيار ، وكثير من الخانة بمنزلة الأمناء ، وكثير من الغدرة بمنزلة الأوفياء ، ويغطى عليه أمر كثير من أهل الفضل الذين يصونون أنفسهم عن التصنع والتمحل

لتعرف رعيتك أبوابك التى لا ينال ما عندك من الخير إلا بها ، والأبواب التى لا يخافك خائف إلا من قبلها

احرص الحرص كله على أن تكون خبيراً بأمور عمالك فان المسيء يفرق من خبرتك قبل أن تصيبه عقوبتك ، وإن المحسن يستبشر بعلمك قبل أن يأتيه معروفك

ليعلم الوالى أن الناس يصفون الولاة بسوء العهد ونسيان الود ، فليكابد نقض قولهم وليبطل عن نفسه وعن الملوك صفات السوء التى يوصفون بها

لا يولمن الوالى بسوء الظن لقول الناس ، وليجعل لحسن الظن من نفسه نصيباً موفوراً يروح به عن قلبه ويصدر به أعماله

من صحب السلطان لم يزل مروعاً . فساد الملك أضر على الرعية من جدب الزمان

٨ — « الأدب الصغير » رسالة قيمة فى علم تهذيب الأخلاق ، تقع فى أربعين صفحة كتبت بأسلوب جميل ساحر ، أسلوب فيه حلاوة وعليه طلاوة ، أسلوب تتجلى فيه الألفاظ العذبة والمخارج السهلة والديباجة الكريمة والمعانى التى إذا طرقت الصدور عمرتها ، وهى ممتلئة بأصدق الأنباء عن الروح الانسانية تبرهن على مقدرة ابن المقفع العجيبة فى تصوير طبائع الناس قال :

على العاقل ألا يحزن على شىء فاته من الدنيا أو تولى وأن ينزل ما أصاب من ذلك ثم انقطع عنه منزلة مالم يصب ، وينزل ماطلب من ذلك ثم لم يدركه منزلة مالم يطلب

وعلى العاقل أن يجبن عن الرأى الذى لا يجد عليه موافقاً وإن ظن أنه على اليقين

وعلى العاقل إن اشتبه عليه أمران فلم يدر فى أيهما الصواب أن ينظر أهواهما عنده فيحذره

من نصب نفسه للناس إماماً فى الدين فعليه أن يبدأ فى تعليم نفسه وتقويمها فى السيرة والطعمة والرأى واللفظ والأخدان . معلم نفسه ومؤدبها أحق بالاجلال والتفضيل من معلم الناس ومؤدبهم

الناس إلا قليلاً ممن عصم الله مدخولون فى أمورهم ، فقائلهم باغ ، وسامعهم عياب ، وسائلهم متعنت ، ومجيبهم متكلف ، وواعظهم غير محقق لقوله بالفعل ، وموعوظهم غير سليم من الاستخفاف ، يترقبون الدول ، ويتعاطون القبيح ، ويتعاينون بالفخر

لا يمنعك صغر شأن امرىء من اجتباء ما رأيت من رأيه صواباً ، واصطفاء ما رأيت من أخلاقه كريماً ، فان اللؤلؤة الفائقة لا تهان لهوان غائصها الذى استخرجها

أعدل السير أن تقيس الناس بنفسك ، فلا تأتى إليهم إلا ما ترضى أن يؤتى إليك

ومن ورع الرجل ألا يقول ما لا يعلم ، ومن الأرب أن يتثبت فيما يعلم

إقدام المرء على ما لا يدرى أصواب هو أم خطأ جماح ، والجماح آفة العقل

خمول الذكر أجمل من الذكر الذميم

لايوجد الفخور محموداً ، ولا الغضوب مسروراً ، ولا الحر حريصاً ، ولا الكريم حسوداً ، ولا الشره غنياً ، ولا الملول ذا اخوان

ما التبع والأعوان والصديق والحشم إلا للمال ، ولا يظهر المروءة إلا المال ، ولا الرأى والقوة إلا بالمال ؛ ومن لا إخوان له فلا أهل له ، ومن لا ولد له فلا ذكر له ، ومن لا عقل له فلا دنيا ولا آخرة له ، ومن لا مال له فلا شىء له . والفقر داعية إلى صاحبه مقت الناس ، وهو مسلبة للعقل والمروءة ، ومذهبة للعلم والأدب ، ومعدن للتهمة ، ومجمعة للبلايا ، ومن نزل به الفقر والفاقة لم يجد بداً من ترك الحياء ، ومن ذهب حياؤه ذهب

سروره ، ومن ذهب سروره مقت ، ومن مقت أوذى ، ومن أوذى حزن ، ومن حزن ذهب عقله واستنكر حفظه وفهمه ، ومن أصيب فى عقله وفهمه وحفظه كان أكثر قوله وعمله فيما يكون عليه لا له

(٩) « كليلة ودمنة » كتاب بليغ يتضمن الجد والهزل ، واللهو والحكمة ، ألفه بيدبا الفيلسوف الهندى رأس البراهمة ، ونقله إلى العربية عن الترجمة الفارسية ، فى صدر الدولة العباسية (عبد الله بن المقفع) رأس الكتاب ، وقيل إن ابن المقفع هو الذى وضعه وأنه نحله الهند القدماء لترغيب أهل زمانه فى مطالعة كتب الحكمة والفلسفة التى لم يكونوا يأبهون لها إلا إذا أسندت للقدماء ، وهو موضوع على ألسن البهائم والسباع والطير ليكون ظاهره لهو للعوام وباطنه رياضة لعقول الخاصة ، وهو معروف متداول فلا داعى للافاضة فى بحثه

١٠ — ونتساءل : كيف كانت صورة عبد الله بن المقفع وهيئته ؟ كيف كان شكله وطراز جسمه ! هل كان جميلاً ظريفاً قوياً أم على العكس قبيحاً دمياً ضميفاً ! ماذا كان يلبس ؟ هل كان يهتم بنظافة ثيابه وحسن هندامه ، كيف كانت حياته الخاصة كيف كان يعيش مع نفسه وأهله وخلصائه ؟ هل كان يميل إلى المرح والمداعبة والهزل ؟ هل أحب ؟ ما هى قصة حبه ؟ هل كان له زوجات وأولاد ؟ ما درجة اتصاله بأهله وذوى قرباه ؟ أى متاع الدنيا آثر عنده ؟

هذه أسئلة عظيمة الفائدة المتمة لابد وأن تعرض لذهن من يود أن يعرف ابن المقفع ويفهم أدبه ، ولكن أليس عجيباً ألا نستطيع أن نجيب على سؤال واحد منها وأن نكون على جهل تام بحياة أديبنا الخاصة ؟

ليس الذنب فى ذلك ذنبنا ، وإنما هو ذنب مترجمى أدبنا القدماء فهم قل أن اهتموا أثناء ترجمتهم لأديب أو شاعر بحياته النفسية الخاصة ثم بحياة محيطه ، هذه الحياة التى تكوّن الأديب وتطبع آثاره الأدبية البيانية بطابع الشخصية والذاتية

١١ — كل ما ذكره المترجمون عن حياة ابن المقفع الخاصة كان جملة واحدة أوردوها عرضاً أثناء تحدثهم عن شعوره الدينى أوردها صاحب الأغانى نقلاً عن الجاحظ قال : كان ابن الحباب ومطيع بن إياس ، ومنقذ بن عبد الرحمن الهلالى ، وحفص بن أبى وردة ، وابن المقفع ، ويونس بن أبى فروة ، وحماد عجرد ، وعلى بن خليل ، وحماد بن أبى ليلى الراوية ، وابن الزبرقان ، وعمارة ابن حمزة ، وجميل بن محفوظ ، وبشار المرعش ، ندماء يجتمعون على الشراب وقول الشعر ولا يكادون يفترقون ، ويهجو بعضهم بعضاً هزلاً وعمداً ، وكلهم متهم فى دينه »

نقول إن صحت رواية الجاحظ كان هؤلاء الشعراء والأدباء الذين كانوا يجتمعون على الشراب لقول الشعر ولا يكادون يفترقون هم الذين يمثلون الطبقة الخاصة من الناس التى ذكرها ابن المقفع فى قوله « وعلى العاقل أن يجمل الناس طبقتين متباينتين ويلبس لهم لباسين مختلفين فطبقة من العامة يلبس لهم لباس انقباض وانحجاز وتحرز وتحفظ فى كل كلمة وخطوة ، وطبقة من الخاصة يخلع عندهم لباس التشدد ويلبس لباس الأنسة واللطف والبذلة والمفاوضة ولا يدخل فى هذه الطبقة إلا واحد من ألف كلهم ذو فضل فى الرأى وثقة فى المودة وأمانة فى السر ووفاء بالاخاء

١٢ — مات ابن المقفع باكراً ، لم يتمع بالحياة ؛ كان عمره ستة وثلاثين عاماً يوم قتلوه ؛ نعم لم يمت المسكين بل قتل حرقاً بالنار . يا لهول الجريمة ! !

أجمع مترجمو ابن المقفع على أن سبب مقتله كتابته أماناً لعبد الله (١) عم المنصور قال فيه :

« . . . ومتى غدر أمير المؤمنين بعمه عبد الله ؛ فنساؤه طوالق ، ودوابه حبس ، وعبيده أحرار ، والمسلمون فى حل من بيعته » ، فلما وقف عليه المنصور عظم عليه ذلك وقال : من كتب هذا ، فقالوا له : رجل يقال له عبد الله بن المقفع يكتب لأعمامك ؛ فكتب الى سفيان بن معاوية بن مهلب بن أبى صفرة متولى البصرة يأمره بقتله ، ذكروا أن سفيان كان شديد الحنق على ابن المقفع لأنه كان يعبث به وينال من أمه ولا يسميه إلا بابن المغتلمة »

وإنها لخسارة لا تعوض ، وإنها لجريمة لا تغتفر ، ورحم الله ابن المقفع

شرق الأردن بشير الشريقى

(١) هو عبد الله بن على ، خرج على المنصور بالشام والجزيرة فسير عليه أبا مسلم الخراسانى فهزم جموعه وفر عبد الله إلى البصرة محتمياً بأخويه اسماعيل وسليمان ، فطلبه المنصور منهما فلم يجيباه إلا بأمان لعبد الله يمليان شروطه ، فقبل ذلك المنصور ، فأمرا ابن المقفع كاتبهما أن يحرر أماناً يتصعب فى شروطه ، فكان أن كتب هذا الأمان الذى أفقده حياته

١٢ - شاعرنا العالمي

أبو العتاهية

للأستاذ عبد المتعال الصعيدي

فنونه الشعرية : تناول أبو العتاهية لأول أمره من فنون الشعر الغزل والمدح والرثاء والهجاء والعتاب والاستعطاف وما إلى ذلك مما كان يتناوله غيره من الشعراء ، ثم استفرغ بعد ذلك جل شعره في الزهد والوعظ والحكمة والمثل ، فأعطى الشعر العربي من ذلك ثروة عظيمة كانت تنقصه.

فأما غزله فكان يذهب فيه مذهب الشعراء العشاق كجميل بثينة وغيره ، وإن كنا قد ذكرنا في ترجمته أنه لم يكن صادق العشق مثلهم ، ولكن سجيته التي كانت تنازعه من أول أمره إلى قول الزهد ، لم تكن لترضى له أن يذهب في غزله مذهب فساق الشعراء كامرىء القيس وعمر بن أبي ربيعة وغيرهما ، فجاء غزله عفيفاً بعيداً عن الفحش والفجور ، ليس فيه إلا شكوى الصبابة وألم الصد وعذاب الفراق ونحو ذلك من وجدانات أهل العشق ؛ ولعل هذا أيضاً مما كان يرغب المهدي والرشيد في غزل أبي العتاهية ويجعلهما يغضبان عليه إذا أراد أن يتركه إلى الزهد ، مع أنهما كانا لا ينظران إلى غزل أحد غيره بتلك العين التي نظرا بها إلى غزله ، وأمر المهدي مع بشار في غزله معلوم ، وكذلك أمر الرشيد مع أبي نواس ؛ وقد شاع الغزل بالمذكر في عصر أبي العتاهية فصان نفسه عنه ، ولم يدنس شعره به ، وهذه شهادة مسلم بن الوليد في غزل أبي العتاهية . ذكر أبو الفرج أن مسلماً قال : كنت مستخفاً بشعر أبي العتاهية فلقيني يوماً فسألني أن أصير إليه ، فجاءني بلون واحد فأكلنا ، وأحضرني تمراً فأكلناه ، وجلسنا نتحدث ، وأنشدته أشعاراً لي في الغزل ، وسألته أن ينشدني ، فأنشدني قوله :

بالله يا قُرة العينين زوريني ... قبل الممات وإلا فاستزيريني
إني لأعجب من حبٍّ يقربني ... ممن يباعدني منه ويقصيني
أما الكثير فما أرجوه منك ولو ... أطمعتني في قليل كان يكفيني

ثم أنشدني أيضاً :

أخلايَ بي شجو وليس بكم شجو ... وكل امرئٍ عن شجو صاحبه خِلْوُ
وما من محبٍّ نال ممن يحبه ... هوًى صادقاً إلا سيدخله زهو
بليتُ وكان المزحُ بدء بليتي ... فأحببت حقاً والبلاءُ له بدْو
وعُلِّقْتُ من يزهو علي تجبراً ... وإنيَ في كل الخصال له كُفو
رأيتُ الهوى جمر الغضا غير أنه ... على كل حال عند صاحبه حلو

ثم أنشدني :

خليلي مالي لا تزال مضرتي ... تكون مع الأقدار حتما من الحتم
يصاب فؤادي حين أرمي ورميتي ... تعود إلى نحري ويسلم من أرمي
صبرت ولا والله مابي جلادة ... على الصبر لكني صبرت على رغمي
ألا في سبيل الله جسمي وقوتي ... ألا مسعد حتى أنوح على جسمي
تُمدُّ عظامي واحداً بعد واحد ... بحتى من المذال عظما على عظم
كفاكِ بحق الله ما قد ظلمتني ... فهذا مقام المستجير من الظلم

قال مسلم : فقلت له لا والله يا أبا إسحاق ما يبالي من أحسن أن يقول مثل هذا الشعر مافاته من الدنيا ؛ فقال يا ابن أخي لا تقولن مثل هذا ، فإن الشعر أيضاً من بعض مصايد الدنيا

وأما مدحه فقد كان مدحا تجاريا لم ينطق فيه عن عقيدة ، بل كان يمدح به قوماً يخالفونه في عقيدته الشيعية ، ولا يقصد من ذلك إلا الحصول على المال الذي أباح الشيعة أخذه من المتملك لأنه حق لهم ، فسار أبو العتاهية في مدحه بقدر مايصل به إلى هذا الغرض ، ولم يدخل به في الخصومة السياسية التي كانت قائمة في عصره بين العباسيين والعلويين ، وذهب فيها كثير من الشعراء مذاهب باطلة ، ودفعهم حب مال العباسيين إلى أن يجعلوا حقهم في ملك المسلمين بالارث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا يشاركهم فيه العلويون ولا غيرهم من المسلمين ، وفي هذا يقول قائلهم :

أنّى يكون وليس ذاك بكائن ... لبني البنات وِراثةُ الأعمام

ولم يفرح العباسيون بشيء فرحهم بهذه الفكرة الخاطئة ، فعدوها أكبر نصر لهم على خصومهم من العلويين ، وأغدقوا على من ابتكرها لهم شعراً مالا يحصى من الأموال ، وحملوا الشعراء على التفنن فيها ، وتصريف الشعر في تأييدها ونشرها

فلم يصل مدح أبي العتاهية للعباسيين إلى هذا الحد، ولم يبع عقيدته بأموالهم فيفضلهم على العلويين أو يذمهم من أجلهم، بل كان على حبه للمال وبخله به يعرف كيف يرفضه إذا كان في قبوله إهانة له، أو حطاً من كرامته؛ ويمكننا أن نسوق على ذلك شواهد كثيرة، ذكر أبو الفرج أن أبا العتاهية كان منقطعاً إلى صالح المسكين، وهو ابن أبي جعفر المنصور، فأصاب في ناحيته مائة ألف درهم، وكان له ودوداً وصديقاً، فجاءه يوماً وكان له في مجلسه مرتبة لا يجلس فيها غيره، فنظر إليه قد قصر به عنها، وعاوده ثانية فكانت حاله تلك، ورأى نظره إليه ثقيلا، فنهض وقال:

أراني صالحٌ بُغضَا ... فأظهرتُ له بُغضَا
ولا والله لا ينقـ ... ـض إلا زدته نقضَا
وإلا زدته مقتاً ... وإلا زدته رفضا
ألا يا مفسد الوُدِّ ... وقد كان له محضا
تغضبتَ من الريح ... فما أطلب أن ترضى
لئن كان لك المال الـ ... ـمصفّى إن لي عِرْضا

فنمى الكلام إلى صالح فنادى بعداوته فقال فيه:

مَددتُ لمعرض حبلا طويلا ... كأطول ما يكون من الحبال
حبالٌ بالصريمة ليس تفني ... موصَّلةٌ على عدد الرمال
فلا تنظرْ إليّ ولا تردْني ... ولا تقربْ حبالُكَ من حبالي
فليت الردمَ من يأجوج بيني ... وبينك مُثبتاً أخرى الليالي
فكرشٌ إن أردتَ لنا كلاما ... ونقطع تحفَ رأسك بالقتال

وذكر أيضاً أنه قدم يوماً منزل يحيى بن خاقان، فلما قام بادر له الحاجب فانصرف، وأتاه يوماً آخر فصادفه حين نزل فسلم عليه ودخل إلى منزله ولم يأذن له، فأخذ قرطاساً وكتب إليه:

أراك تَراعُ حين ترى خيالي ... فما هذا يرُوعكَ من خيالي
لعلك خائف مني سؤالي ... ألا فلك الأمانُ من السؤال
كفيتُكَ إن حالك لم تمِل بي ... لأطلب مثلها بدلا بحالي
وإن اليسر مثل العسر عندي ... بأيهما مُنيتُ فلا أبالي

ولاشك أن هذه النفس في إبائها وعقيدتها المخالفة لعقيدة ممدوحيها لو كانت لغير أبي العتاهية لصعب عليها في الشعر مقام المدح، ولكن طبع أبي العتاهية في الشعر سهل عليه كل شيء، وجعله يأتي في ذلك من المدح بما أرضى ممدوحيه غاية الرضا، وكان على ما ذكرنا في ترجمته يقصر التشبيب أمام المدح ولا يطوله حتى يكون كأنه هو مقصوده من شعره، كما كان يفعل ذلك غيره

وكان ابن الاعرابي يتعصب لأبي العتاهية فتنقصه رجل أمامه ورمى شعره بالضعف، فقال له: الضعيف والله عقلك لا شعر أبي العتاهية، ألأبي العتاهية تقول إنه ضعيف الشعر؟ فوالله ما رأيت شاعراً قط أطبع ولا أقدر على بيت منه، وما أحسب مذهبه إلا ضرباً من السحر؛ ثم أنشده قصيدته في الزهد:

قَطَّعْتُ منك حبائل الآمال
وحطَطْتُ عن ظهر المطيِّ رحالي

ثم قال للرجل هل تعرف أحداً يحسن أن يقول مثل هذا الشعر؟ فقال له الرجل: يا أبا عبد الله جعلني الله فداءك، إني لم أردد عليك ما قلت، ولكن الزهد مذهب أبي العتاهية، وشعره في المديح ليس كشعره في الزهد، فقال: أفليس الذي يقول في المديح:

وهرونُ ماء المُزْنِ يُشفى به الصَّدى
إذا ما الصدى بالريق غُصَّت حناجرُه
وأوسط بيتٍ في قريش لَبَيتُه ... وأول عز في قريش وآخره
وزحفٌ له تحكي البُرُوقَ سيوفُهُ
وتحكي الرعودَ القاصفات حوافره
إذا حَميتْ شمسُ النهار تضاحكت
إلى الشمس فيه بيضُهُ ومغافره
إذا نكِبَ الاسلام يوماً بنكبة ... فهرون من بين البرية ثائره
ومن ذا يفوت الموتَ والموتُ مُدْرِكٌ
كذا لم يَفُتْ هرونَ ضدٌّ ينافره

قال: فتخلص الرجل من شر ابن الاعرابي بأن قال له: القول ما قلت، وما كنت سمعت له مثل هذين الشعرين، وكتبهما عنه:

وأما رثاؤه فكان يذهب فيه مذهبه في الزهد والحكمة، لقرب مقامه من مقامهما، ومن ذلك رثاؤه في علي بن ثابت، وكان صديقاً له، وبينهما مجاوبات كثيرة في الزهد والحكمة، فحضره أبو العتاهية وهو يجود بنفسه، فلم يزل ملتزمه حتى فاض، فلما شُدَّ لحياه بكى طويلاً، ثم أنشد يقول:

يا شريكى فى الخير قربك الله فنعم الشريك فى الخير كنتا
قد لعمرى حكيت لى غصص المو ت فحركتنى لها وسكنتا

ولما دفن وقف على قبره يبكى طويلاً أحر بكاء ويردد هذه الأبيات:

ألا منْ لى بأنسك يا أُخيّا   ومن لى أن أبثك ما لديّا
طوتكَ خطوبُ دهرك بعد نشر   كذاك خطوبه نشراً وطيّا
فلو نشرت قواكَ لى المنايا   شكوتُ إليك ما صنعت إليّا
بكيتك يا علىُّ بدمع عينى   فما أغنى البكاءُ عليك شيّا
وكانت فى حياتك لى عظاتٌ   فأنت اليوم أوعظ منك حيّا

وهذه المعانى كما قال أبو الفرج أخذها كلها من كلام الفلاسفة لما حضروا الاسكندرية، وقد أخرج ليدفن، قال بعضهم: كان الملك أمس أهيب منه اليوم، وهو اليوم أوعظ منه أمس؛ وقال آخر: سكنت حركة الملك فى لذاته، وقد حركنا اليوم فى سكونه جزعاً لفقده. وهذان المعنيان هما اللذان ذكرهما أبو العتاهية فى هذه الأشعار

وذكر أبو العتاهية أنه ماتت بنت للمهدى، فحزن عليها حزناً شديداً حتى امتنع عن الطعام والشراب، فقلت أبياتاً أعزيه بها، فوافيته، وقد سلا وضحك وأكل وهو يقول: لابد من الصبر على مالا بد منه، ولئن سلونا عمن فقدنا، ليسلون عنا من يفقدنا، وما يأتى الليل والنهار على شىء إلا أبلياه، فاستأذنته فى إنشاد ما قلت فأذن:

ماللجديدين لا يبلى اختلافهما   وكل غضٍّ جديد فيهما بالى
يا منْ سلا عن حبيب بعد ميتته   كمْ بعد موتك أيضاً عنك من سال
كأن كلَّ نعيم أنت ذائقه   من لذة العيش يحكى لمعة الآل
لا تلعبنَّ بك الدنيا وأنت ترى   ما شئتَ من عبر فيها وأمثال
ما حيلةُ الموت إلا كلُّ صالحة   أوْ لا فما حيلةٌ فيه لمحتال

وأما الهجاء فكان أبو العتاهية يترفع عنه ولا يقوله إلا مضطراً، فاذا قاله لم يفحش فيه كغيره، وكانت بينه وبين والبة بن الحباب مهاجاة حينما قصد والبة بغداد وهو كوفى مثله، فحسده على أن بلغ فى بغداد مالم يبلغه، وأخذ يهجوه ويذمه. وقد حدث محمد ابن عمر الجرجانى قال: رأيت أبا العتاهية جاء إلى أبى فقال له: إن والبة بن الحباب قد هجانى، ومن أنا منه؟ أنا جرار مسكين — وجعل يرفع من والبة ويضع من نفسه — فأحب أن تكلمه أن يمسك عنى، فكلم أبى والبة فلم يقبل، وجعل يشتم أبا العتاهية فتركه، ثم جاءه أبو العتاهية فسأله عما فعل فى حاجته، فأخبره بما رد عليه والبة، فقال لأبى لى الآن عليك حاجة، قال وماهى؟ قال لا تكلمنى فى أمره، فقال هذا أول ما يجب لك، فقال أبو العتاهية يهجوه:

أوالبُ أنت فى العرب   كمثل الشيص فى الرُّطب
هلمَّ إلى الموالى الصـ   ـيد فى سعةٍ وفى رحب
فأنت بنا لعمرُ الله   أشبهُ منك بالعرب
غضبتُ عليك ثم رأيـ   ـتُ وجهك فانجلى غضبى
لما ذكّرتنى من لوْ   نِ أجدادى ولون أبى
فقل ما شئت أقبَلُهُ   وإن أطنبتَ فى الكذب
لقد أُخبرْتُ عنك وعن   أبيك الخالص العرب
فقال العارفون به   مُصاصٌ غيرُ مؤتَشب
أتانا من بلاد الرو   م مُعتجِراً على قتب
خفيف الحاذ كالصمصا   م أطلسُ غير ذى نشب
أوالب ما دهاك وأنـ   ـت فى الأعراب ذو نسب
أراك وُلِدتَ بالمريـ   ـخ يا ابن سبائك الذهب
فجئتَ أقيشرَ الخدين   أزرق عارمَ الذنب
لقد أخطأتَ فى شتمى   تخبّرنى ألم أُصب

وقال فيه أيضاً غير ذلك، فبلغ والبة، فجاء أبى فقال قد كلمتنى فى أبى العتاهية وقد رغبت فى الصلح، فأخبره بما أخذه أبو العتاهية عليه، فقال له والبة فما الرأى عندك؟ قال تنحدر إلى الكوفة، فركب زورقا ومضى من بغداد إلى الكوفة، وكان هجاء والبة فيه ضعيفاً سخيفاً لا يقوى على هذا الهجاء، وفيه من الفحش ما نروى بعضه ليعلم بعد ما بين الهجاءين:

قل لابن بائعة القِصار   وابن الدّوارق والجِرار
....
يهجو مواليك الأولى   فكوكَ من ذُلِّ الاسار

هذا مثل من هجوه وإن الشعر لأعلى مقاماً من هذا القبح الذى أتى به، وإنه لينال من نفسه بذلك قبل أن ينال ممن يهاجيه

عبد المتعال الصعيدى

أمام المشـنقة

[على لسان أحد الشبان المحكوم عليهم بالشنق لجريمة أتاها]

للشاعر الفيلسوف جميل صدقي الزهاوي

قسا عليّ الفلكُ   بعد قليلٍ أهلكُ
ما باختياري في شبا   بي للحياة أترك
أينَ مضت صحابتي   وأيةً قد سلكوا
مَن ذا إذا متُّ سَيَبْـ   ـكيني ومَن ذا يضحك
قد نصبوا لي شركا   فما عداني الشرك
ما بال شمسي أخذت   عند الشروق تدْلك
قد استوى ضوء الضحى   في أعيني والحلَك
لم أجنِ لو كانت يدُ الـ   ـمقدور لا تشترك
بالدم قد خضّب كفّـ   ـي القدرُ المُحرِّك
قد أفرحَ النُظّارَ بي   أنَّ دمي ينسفك
ازدحموا حولي ولِلْـ   أنفاس منهم أمسكوا
ليبصروا كيف حيا   تي حبلُها ينبتك
ما هي إلاّ رجفةٌ   وبعدها لا أحرك
أفي قلوبهم عليّ   عند موتي حَسَك
إنيَ إنسانٌ له   أخطاؤه لا مَلَك
كم ليَ من مثل لو أنّ (م) سرّه   ينهتك
خذوا حياتي إنها   أثمنُ ما أمتلك
لا تحبسوا الرحمة عمّـ   ـن قد قضوا أو أوشكوا
ولو تجشّم الأسى   لكان دمعاً يُسفك

***

كل البقاع للحيا   ة فوقها مُعترَك
أمّا الحياة فهي إن   وَلّت فلا تُستدرك
والموتُ بالانسان إلاّ   مرةً لا يفتك
إذا أتت ساعته   فكلُّ شيء مُهلك
تعقده الحياة والـ   ـموت له يُفكّك
قد يُدفَن المرء على   أخيه ثم يُترَك
بعد البِلى تعانقُ الـ   ـعظامُ أو تشتبك
إن البلى لكل مَن   حواه قبرٌ يعرك
نهارُه وليلُه   كلاهما مُحاولك
مشنقتي هي التي   أودّها وأفرك (1)
وعلّني إذا ركبـ   ـتُها فلا أرتبك
فأعتلي كأنني   أدركتُ مالا يُدرَك
إني سلكتُ مسلكا   صعباً وبئس المسلك
والحقُّ خير ما يقو   ل المرء حين يهلك
هذا جزاء مجرمٍ   بالأبرياء يفتك

بغداد   **جميل صدقي الزهاوي**

(1) أمقت

سر الحيـاة

للأستاذ عبد الرحمن شكري

عبء لغز الحياة يا قلب ما أفـ   ـدح عبئاً يُخنَى عليك وثقلا
لغز عيشٍ ولغز عقلٍ وما أعـ   ـجب لغزاً يروم للغز حلا
كلما رمتَ بالمجاهل خُبْراً   زادك العيش بالمعالم جهلا
عَبَثُ العيشِ كلما قال لا سِـ   ـرَّ أعدتَ السؤال جداً وهزلا
قد خبرتَ الأنامَ يا قلب هل تنـ   ـشد سراً من بعد ذاك وسُؤْلا
وحياة بالسر أحجى حياة   هي أحلى مما تراه وأعلى
خُدْعَةُ العيشِ أن يُلَوِّحَ بالسـ   ـر إذا عاف عائشوه ومُلّا
فتزيد الحياةَ حسناً ومأمو   لاً وتغوى الحياة نشأً وكهلا
مثلما حُجِّبتْ فتاة لِيُرْجَى   سر حسن لها استسر وقَلّا
لو بدت عاطلاً لما خلبت لُـ   ـبّاً ولا استعبدت عشيقاً وخِلّا
كم سعيد يلهو ويعمل لا ينـ   ـقض فعلاً وليس ينكر قولا
وعلى غدرها أحب حياة   وحباها في الحب أهلاً ونسلا

عاشقاً للحياة بعضاً وكلا … راضياً بالحياة فرعاً وأصلا
فإذا شاكه من العيش همٌّ … قال قولاً ورام للغز حَلا
عبء لغز الحياة يا قلب ما أفـ … ـدح عبئاً يُحنَى عليك وثقلا
سِرُّها أنك السعيد إذا لم … تَدْرِ أن لا سراً لديها فيُجْلَى
ضَلّةٌ ما أقول كم لاح من كشـ … ـفٍ وقد كان خافيَ السر قبلا
ولعل الحياة أكبر لولا … مُعْظِمٌ للحياة غالى وأغلى
فهى من فرط رَفْعِهِ فى انخفاض … تلك عُلْيا إنْ يُعْلِها فهىَ سُفْلى
باء باليأس من عُلاها وقد غا … لى فقال الحياة بالحط أولى
ويعيد الحياة فرضاً وحسناً … ومتاعاً من يأخذ العيش سهلا

عبد الرحمن شكرى

يا كَوْن !

للاستاذ فخرى أبو السعود

يا كَوْنُ كُنْ لى جميلاً … على الدوام جديدا
أبغِى لديك طريفاً … إذا هجرتُ تليدا
لا تَبْلَ ، لا تغْدُ شيئاً … أَلِفْتُـــهُ معهودا
بل أَبْدُ دوْماً عجاباً … مُسْتَطْرَفاً منشودا
لا تَبْدُ فرداً ولكن … كُنْ أنتَ جمّاً عديدا
جَدِّد لحسنك هذا … بعد البرود بُرُودا
ولا تضِقْ بيَ أفقاً … ولا تدانَ حدودا
لا زال أفقك لى يا … كَوْنِى رحيباً بعيدا
أشيم فى كل يومٍ … مرمىً به مقصودا
لا تبدُ يوماً فراغاً … لا تبدُ يوماً زهيدا
لِتَبْقَ حفلاً نفيساً … أُريغ منك المزيدا
جدِّد صُرُوفك وابعث … بعد النحوس سعودا
ابعث أسًى أو سروراً … لكن حذارِ الجمودا
أُريد يا كونُ عمراً … فى كل يومٍ مديدا
من عاش فى كل يوم … عمراً أصابَ الخلودا
لا أبتغى العمرَ يوماً … مُرَجَّعاً مردودا
أُريدُ فى كل يوم … أرُودُ هذا الوجودا
فى كل يوم أرانى … فى عالَمٍ مولودا
أُريد أكشِفُ معنًى … فى كل يومٍ شرودا
منه أُغذِّى شعورى … وأستجِدُّ قصيدا

فخرى أبو السعود

عرش الجمال

[إلى مس مصر ، ملكة الجمال العالمى]

للأستاذ محمود غنيم

يا ربَّةَ المُلْك الذى انتظم الورَى … مُلْكُ البسيطة ما أُتيح لقيصرا
خضعت لحكمك دولةٌ عزّت على … « دارا » وأعيا عرشُها « الاسكندرا »
لكِ دولةٌ لم ترهفى من أجلها … حدَّ الحسام ولم تقودى عسكرا
لِتُوَدِّع الأُسْدُ الغضابُ عروشَها … قد أصبح المَلِكُ المتوّجُ جؤذَرا
من كان يمتلكُ الرقابَ فإنما … عرشُ الجمال على القلوب تسيطرا
كم عاهل ذى سطوة لم يفتتحْ … قلباً وإن فتح المدائنَ والقُرى
مُلْكُ الفراعنة الشِّدادِ أعدْتِهِ … بيدٍ مخضَّبةٍ وطرْفٍ أحْوَرا
ما للمها فى مصرَ تحكُم عالماً … والليثُ يَعْجزُ أنْ يعيش محرَّرا

* * *

ملكتْ يمينُك كلَّ صدرٍ ناهدٍ … وأطاع أمرَكِ كلُّ خدٍّ أحمرا
كم كاعبٍ ملكت قلوباً أصبحت … أَمَةً تُباع إذا أَرَدْتِ وتُشترى
كم تحت حكمكِ ذاتُ لحظٍ إن رنا … ترَكَ المهنّد لا يساوى خنجرا
جُنْدٌ أغرُّ من الحسان الحور لو … لاقيتِ أسطولاً به لتقهقرا
أقسمت ما بين الملوك أعزُّ مِنْ … مَلِكٍ على عرش الملاح تأمّرا

كوم حماده — محمود غنيم

فصول ملخصة في الفلسفة الألمانية

٢٤ – تطور الحركة الفلسفية فى ألمانيا

الناحية السلبية من مذهب نيتشه

الانسان

للأستاذ خليل هنداوى

إن انتشار مذهب الشفقة — فى هذا الجيل — دليل على أن الانسان أصبح يزداد خوفه من الألم . أصبح متراخياً ، مخنثاً يخشى من كل ما يعكر عليه طمأنينته ووجوده ، لا يحمل الفرار من الألم وحده ، بل لا يستطيع أن يتصور فكرة الألم عند الآخرين ، حتى لا يقدر أن يؤلم الغير عند ما يطالب العدل منه ذلك باسم العدل . الرحيم يبسط شفقته حتى على المجرمين والمسيئين « وقريباً يأتى ذلك اليوم الذى يتراخى فيه المجتمع الانسانى ويقعد عن معاقبة المجرم الذى يضره . لماذا يعاقب المجرم ؟ إن المعاقبة يرى فيها ضرباً من ضروب الجور . فكرة القصاص وضرورة القصاص تسوؤه . أليس فى إقصاء المجرم وغل يديه عن عمل السوء ما يُغنى؟ فلماذا القصاص إذن ؟ إن القصاص يضنى . أما المثل الأعلى الذى يطلبه « وحش القطيع » فهو جزء ضئيل من السعادة المحققة لكل إنسان ، يرافقه شيء ضئيل من الألم . إن الشقاء — عندهم — شيء يجب محقه

إن نيتشه — فى هذا الفصل وهو خير فصوله — يعتقد أن الجبن والخوف من الألم هما من الصغار والحقار بمكان ، إن الألم هو فى الحق معلم الانسانية وهو الذى يحقق أحسن نماذج شريفة . « أنتم تريدون سحق الألم ونحن نريد أن تكون الحياة أكثر قسوة وأشد رداءة . إن الكائن السامى الذى تفهمونه ، نرى فيه « غاية » ولا نرى فيه « نهاية » . نرى فيه مرحلة يبدو الانسان من ورائها شيئاً حقيراً مزرياً حتى يدرك آخر عهده ، بلى ! فى مدرسة الألم الكبير ، فى مدرسة هذا المعلم القاسى يتم الانسان مراحل تطوره ، أليس التضييق على هذه النفس الساقطة تحت أعباء الشقاء يزيدها قوة وصلابة ! أليست هذه الرجفة التى تنتابها بازاء الحادثات الكبرى تزيد قوة احتمالها وصبرها وثباتها وتحويل المصائب إلى دروس مفيدة . كل هذا ألم يؤول بالنفس — فى مدرسة الألم — إلى خروجها مهذبة نقية ؟ إن فى الانسان « خليقة وخالقاً » فى الانسان شيء هو مادة وطين ووحل ، لا شعور له ، فضاء ، وفى الانسان شيء هو خالق مبدع ، ونقاش ، بهجة فنان وصلابة ومطرقة ، أأدركتم هذه المقارنة ؟ ألا تزال شفقتكم تذهب إلى ما فى الانسان من مادة ينبغى سحقه وحرقه فى النار حتى يتطهر ، وإلى كل ما يجب عليه أن يتألم بالضرورة ؟

وشفقتنا هل تدرون موقعها ! إنها شفقة علينا حين نقاتل شفقتكم كما نقاتل كل ظاهرة من ظواهر الضعف والجبن ، وهكذا : شفقة ضد شفقة

ويرى نيتشه أن المذهب الديموقراطى علامة من علامات الانحطاط ، لأنه مهما تباعدت أصوله وتبدلت مناهجه متفق مع المذهب الديني ، ففى الشريعة المسيحية وفى ديانة الألم الانسانى يتمثل ما يتمثل فى مذهب المساواة . . . مقت الضعيف للقوى ، وجنوح قوى إلى حياة لا ألم فيها . إن المسيحية تجعل الناس متساوين أكفاء أمام الله ، وتعدهم بسعادة كاملة فى الحياة الثانية ، كذلك الديموقراطية جعلت الناس متساوين أكفاء أمام الشريعة والحق ، وعملت على تحقيق سعادتهم فى هذه الدار ، ورجت أن تخلق مجتمعاً يموت فيه التفاوت ويكون أهله فى الحق سواء ؛ لا يتمتع أحدهم بما لا يتمتع به آخر . حيث لا أمر ولا طاعة ، ولا استبداد ولا استئثار ، ولا سيادة ولا عبودية ، ولا غنى ولا فقر

هذا هو المثل الذى تنهض اليه الديموقراطية ، ويدعو اليه أصحابها على اختلاف مللهم ونحلهم ... كلهم يعملون على رفض كل سلطة ذاتية ، ليملكوا لأنفسهم كل امتياز . وكلهم يؤمنون بأن كل فرد يقدر بل ينبغى له أن يجد سعادته الخاصة فى سعادة المجتمع بأسره ، وهذه السعادة الاجتماعية يمكن تحقيقها باشفاق كل فرد على المجتمع ، وبالمحبة العامة السائدة . هذه الأفكار غرست فى عقول أبناء الحاضر غرساً متيناً ، حتى أصبح لا يقوم — فى أوروبا — رجال تقوى فيهم روح السلطة والزعامة . ولن نجد فى عصرنا هذا من يمثل روح نابليون الذى كان ينضوى تحت لوائه الألوف ، يمشى فيمشون لا يسألونه أين يمشى ، وهؤلاء من بأيديهم الحكومة اليوم لا يملكون من الحكم إلا قليلا ، لأن شريعة العبيد رافعة رأسها فى كل مكان ، فهم يستمدون

الحكم من هذه الشريعة ، لا يحيدون عنها ولا يجدون عنها مصرفا ، فهم خادمو هذا البلد ، هم الجلادون فيه ، وهم منفذو القانون (١)

وقد بحث نيتشه علاقة الرجل والمرأة ، وهو يرى أن المرأة ليس لها حق المساواة مع الرجل ، دل على ذلك الحب الذى تنغمس فى حمأته الكائنات . فوظيفة الحب - عند الرجل - غيرها - عند المرأة ، ومكانة الحب عند المرأة غيرها عند الرجل . فالحب عند الرجل إن هو إلا حادث بسيط أو غريزة ضعيفة . أما الغريزة المنيفة فيه فهى غريزة القوة ، هذه الغريزة التى تدفعه إلى بسط سلطانه إلى أقصى ما يقدر عليه . ان مناضلة القوى الطبيعية والقوى البشرية فى سبيل تحقيق شخصيته هى مايتطلب منه عصره وجهوده . فاذا أسلم نفسه إلى الحب ، ووهب حياته وأفكاره للمرأة التى يهواها يصبح عبداً مقهوراً وجباناً ذليلاً ، تسلخ عنه الرجولة الحقة والحب الحق

يقول زرادشت « كل ما فى حياة المرأة هو لغز ، وكل ما فى المرأة له حل واحد هو التوليد » فالحب إذن هو أبرز ما فى حياة المرأة ، وإنما مجدها وشرفها يدفعانها إلى أن تمثل دور « الأولى » فى الحب ، وأن تهب كيانها كله جسداً وروحاً للرجل الذى تصطفيه ، وأن تفتش عن سعادتها فى الانسلاخ عن ارادتها الخاصة . يقول زرادشت : إن سعادة الرجل « أنا أريد » وسعادة المرأة « هو يريد ! » إن المرأة التى تحب ينبغى لها أن تسلم نفسها إلى الرجل الذى يجب عليه أن يتقبل هذه المنحة . . . هذه هى شريعة الحب التى تجعل بين الرجل والمرأة حاجزاً حائلاً وفرقاً بعيداً . خلقت المرأة للحب والطاعة ، وويل لها إذا سئم الرجل من ظفره عليها وألفى أن هذه المنحة حقيرة بالنسبة إليه ، وركض يسعى وراء غرام جديد . ينبغى للرجل أن يحكم وأن يحرس . يجب عليه أن يكون قادراً على أن يحيا حياتين ، ليحقق سعادته لنفسه ، وسعادة من وقفت عليه رجاءها . ولكن تعساً له إذا ظل تحت أثقال هذا العمل ، وإذا أدرك حبُّه وعجز عن اضرام نار هذا الحب ، فان هذا الحب ليحور بغضاً ، وتنقلب المرأة به عليه ، حتى لا ترى فيه إلا موضع ازدراء واحتقار

ولكن جيلنا هذا لن يقبل هذه الآراء . . . فالجيل الذى قدس العبد يجرب أن يؤله المرأة . . . لا يرى فى المرأة عنصراً سامياً يستطيع أن يساعد الانسانية فى تقدمها . الرجل وحده يتعلق عليه ذلك لأنه السيد ، وهو السيد ذو القوة الراجحة والعقل الأرجح والقلب الأمثل والارادة الأشد نفاذاً . والمرأة قد تكون نبيهة ، ذكية تضارع الرجل نباهة وذكاء ، تتفهم المسائل وتفصل أمهات الأمور الدقيقة وتحاكم وتجادل ولكن طبيعتها أقل عمقاً وأقل غنى من طبيعة الرجل . إنها تبقى دائماً طافية على سطوح الأشياء . إنها شىء لا يذكر ... إنها مسكينة مزهوة بنفسها

يقول زرادشت « يعلم الرجل للحرب ، والمرأة لتسلية المحارب ... وما دون ذلك فهو جنون » ليست المرأة صنماً وإنما هى لعبة سريعة العطب لكنها ثمينة وقد تكون خطرة . هى رقة فى طبع الرجل . تغدو خطرة مرعبة حين يضرمها الهوى والحب والبغض ، لأن طبيعتها لا تزال أكثر احتواء من طبيعة الرجل على وحشية الغرائز الأولى . ففيها رقة ملمس الهرة وفظاعة مخالب النمرة ، فيها طبيعة نابية ثائرة ، وأهواء جامحة لا تعرف منطقاً ، ورغاب قلقة . . . وكل هذا يجعل المرأة فقيرة إلى سيد يكبح جماحها ويقودها ويميت فيها جنونها ، حتى إذا استشعرت الرجل أمست رقيقة ناعمة بفضل طبيعتها وزينتها وتبرجها وفضيلتها اللابسة ألف ثوب . فيمرو - إذ ذاك - قلب سيدها الاشفاق عليها ، الاشفاق الكثير لأنها أكثر عرضة للألم . إنها مفتقرة إلى حبه ، وقد قضى عليها بأن تكون أقل الخلائق وهماً

ان نيتشه ينقم على المرأة التى تريدان تتحرر من قيودها ، وتهجر احترامها الرجل وتزعم بأنها قرينة مساوية ، تريدان تدخل معه فيما تطلب الحياة من نضال . ان نيتشه يبغض النساء اللواتى يمشين فى صفوف الرجال ، لأنهن يفقدن تأثيرهن ونفوذهن

(١) ولعل نيتشه صدق فى نبوءته هذه ، فقد علت النقمة على شريعة العبيد بعد أن تزعزعت فضائلها ، وخابت تعاليمها أيما خيبة ، فعلت الفوضى حيث استأثرت الديمقراطية ، وزاد الشعب حيث استغرق الناس فى الحرية ، فهب منهم من لا يؤمن بنصف الحاكم أو بنصف القائد ، وحصر السلطة فى نفسه ، ولم يترك لممثلى الشعب إلا ظلا لا يغنى ولا ينفع ، فحيثما نظرت تنظر ديكتاتورية عاتية عنيفة ، ضمنت للشعب أن تقوده إلى أنهار من عسل مصفى ، وجداول آمال كان ينكرها إذا هجست بها نفسه ... وهل أهول من هذه الديكتاتورية التى نشأت فى وطن نيتشه ؟ وكأنى أبصر هذه الديكتاتورية تقتفى أثر تعاليم نيتشه فى الاصطفاء والسيادة ... كان نيتشه يبشر بفلسفة عنيفة انسانية ، يرحب « بالسوبرمان » أينما كان ، فى الغرب أو فى الشرق ، ولكن رجال شعبه حوروا هذه التعاليم بعض التحوير ، لجعلوا من فلسفة نيتشه فلسفة قومية ، يريدون أن يكون منهم « السوبرمان » أو قل يريدون أن تكون أمتهم « سوبرمان » بقية الأمم ؛ فهم يضطهدون المنحطين والعناصر التى لا تؤمن بالروح الجرمانية ... وويل غداً لكل ديكتاتورية لا تطفئ جوع العبيد

القصص

صور من هوميروس

٩ – حروب طروادة

فتنة ....

للأستاذ دريني خشبة

انتظرت ذيتيس – أم أخيل ، وحبيبة زيوس من قبل – حتى عاد الإله الأكبر من حفل أولمبي دُعِيَ اليه حينما شبت السخيمة بين أجاممنون وبين ابنها ، فأسرعت اليه لتكلمه فى الاهانة التى لحقت أخيل العظيم ، وأزرت بكبريائه ، كسيد جنود هيلاس ......

عجلت ذيتيس إلى زيوس ......

وكانت ذكريات غرام الإله الأكبر ما تزال تتدفق فى قلبه ؛ وكان رنين القبل فوق شفتيها القرمزيتين ما يزال تتجاوب أصداؤه الموسيقية على شفتيه المنهومتين الملتهبتين ؛ وكان هذا الجمال الفتىّ ما يزال له رَجع فى كل جوارحه ... وجوانحه ...

وقفت أمام زيوس ! ....

وكان حلماً لذيذاً طوّف بعينيه ، فرأى إلى قصة حبه تُمثّل بكل ماضيها الحافل أمامه ؛ ورأى إلى هذه الأويقات الحلوة التى التذ فيها فتنة ذيتيس تثب فجأة من الأيام الخوالى فتغمره بسحرها وأسرها ؛ ورأى إلى ذراعيه المرتجفتين ملتفتين حول خصرها النحيل ، وطرفه الساهم الباكى يجول فى طرفها الناعس الكحيل ، ورأى إلى هذا المرمر الطروب المنصبّ فى تمثالها يكاد يكلمه ... فيروى له من أخبار العناق ، وسكرات الهوى ما يفيض له دمعه ، ويجب قلبه ، وترتعد من ذِكره فرائصه ....

– « ذيتيس ؟ ! ... ... »

– « .... ؟ ؟ .... »

– « مالك ؟ ... تبكين ! .... »

– « .... ! ! .... »

– « لا ... لا ... إلىّ ياحبيبتى ! »

وكانت كلما ألحت فى الصمت والبكاء ، ألح هو فى التلطف والرجاء ، وكانت ذيتيس تدرك ما أثارته فى قلبه من غرامه القديم ، فدلّت وتاهت ، حتى أيقنت أنه منقاد لما تطلب ، ولو كلفته بهدم الأولمپ ، وثل عروش السماء !

– « أ .... أخيل .... ! »

– « أخيل ؟ . . . ماله ؟ . . . »

– « ما كفاني أن يذهب ليلاقى حتفه تحت أسوار طروادة ، حتى يهينه أجاممنون ! »

– « يهينه أجاممنون ؟ يهينه كيف ؟ . . . »

– « أغضب قِدّيس أبوللو وكاهنه الأكبر ، ولم يقبل أن يرد عليه ابنته خريسيز ؛ فغضب الراهب الشيخ ودعا ربه ، فسخر الطاعون على الهيلانيين ، حتى كاد يبيدهم ، فلما طلب إليه أن يرد ابنة القديس على أبيها الشيخ ، أبى ، وأخذته العزة بالاثم فلما ألح عليه أخيل ، ولدى البائس ، انقاذاً للجيش ، وإبقاء على أبناء هيلاس ، رضى أن ينزل عن الفتاة ، إذا نزل له أخيل عن بريسيز . . .

واعتبار المجتمع لهن . وإنما همهن أن يظهرن للرجال بطبيعة مباينة لطبيعتهم وجبلة مخالفة لجبلتهم ، يصعب فهمها ويعسر حكمها . وهاهى المرأة المزاحمة للرجل أضاعت ماخصتها الطبيعة به وأهملت مهنتها التى تقضى عليها بوضع الأطفال

وفى النهاية يرى نيتشه أن أوروبا تتشوه وتزداد تشققاً ، قد استحالت إلى معتزل تسكنه طائفة من الناس توقوق – لا أحزان كبيرة ولا أفراح كبيرة – طائفة من رجال ونسوة تساووا فى العجز والضعف والانحطاط ، يقضون على الأرض حياة متشحة بالسواد ، لا أمل فيها ولا غاية لها ؟

(يتبع) خليل هنداوى

وآثر أخيل حياة المحاربين ونجاتهم ، فنزل عن الفتاة للقائد الغاشم . . . »

ـ « . . . ثم . . . »

ـ « ثم هو الآن يحترق بينه وبين نفسه ، وقد اعتزل الحرب ، وخلا وحده فى معسكره ، يهضم أحزانه ، وتهضمه الآلام ... »

ـ « لا عليك يا ذيتيس ! لا عليك يا حبيبتى ! قرى عيناً ... قرى عيناً ... فيما أخذه الناس بغير ما ينبغى له ، لأذيقنه وجنوده البلاء المبين ! . . . »

وعادت ذيتيس جذلانةً بعد أن طبع على جبينها المتلألىء قبلة . . . كم كان يشتهى أن يطبعها على فمها الخمرى . . . لولا أن ذكر أنها زوجة . . . !

***

زلزلت ذيتيس قلب الإلـه الأكبر بدلالها وقوة فتونها ، وأرّق طيفها الرائع جفنيـه ، فلم يذق طعم الكرى تلك الليلة بطولها . . . فهب من مضجعه السندسى فوق سدّة الأولمب ، واستدعى اليه إلـه الأحلام ، فأمره بالذهاب من فوره إلى معسكر الهيلانيين

« . . . فاذا كنت ثمة فانطلق إلى فسطاط أجاممنون ، فداعب عينيه ، واجثم على قلبه ، وقل له ، وهو يغط فى نومه العميق ، إن الآلهة تأمرك أن تصبح فتنفخ فى بوق الحرب ، حاضاً عساكرك على اقتحام طروادة . . . فان زيوس يبشرك بالمدينة الخالدة ، ولا يكاد النهار ينتصف حتى تكون جنودك فى شوارع إليوم ظافرة منتصرة باذنه . . . »

وصدع إلـه الأحلام بما أمره سيد الأولمب ، وانطلق إلى معسكر أجاممنون فى أقل من لمحة ، فداعب عينيه ، وألقى فى روعه الحلم الكاذب ، وعاد أدراجه إلى مولاه

فلما تبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ، هب أجاممنون من نومه مذعوراً ، وأرسل رسله الى رؤساء الجند فاجتمعوا لديه قبيل الشروق ، وأعلن هو انعقاد المجلس الحربى ؛ فصمت الجميع ، ونظر بعضهم إلى بعض ، وكلٌّ يظن أن لابد من أمر جلل ، استدعى انعقاد المجلس فى هذه الساعة من بُكرة اليوم !

ونهض أجاممنون فتحدث إلى القادة ، وأخبرهم برؤياه . ولما فرغ ؛ نهض نسطور الحكيم المحنك ، فسبّح باسم زيوس وأثنى عليه ، وقال :

« لو أن أحداً غير القائد الأعلى رأى تلك الرؤيا لأثار استهزاء الجميع ، ولرماه ، الجميع بجِنّة أومس ، ولكنه قائدنا وملكنا ، وسليل الآلهة العظام ، أجاممنون ، هو الذى رآها ، وهى لاشك موحاةٌ إليه من لدن ربنا وسيدنا ومولانا مليك الأولمب ، وهو لابد ناصرنا على أعدائنا الظالمين . فهلموا أيها الأخوان إلى رجالكم فأيقظوهم ، وانفخوا فيهم الحمية والحماسة ، فاذا أشرقت ذكاء فسوّوا صفوفهم ، واشحذوا عزائمهم ، ولنتوكل على أربابنا ، وليهتف الجميع ؛ باسم زيوس ، ولنصل له ؛ ولنسبح تسبيحاً كبيراً . . . »

فلما كان الصبح ، ارتجف السهل والجبل ، ودوى المشرقان والمغربان بجلبة الجند ، وصار كل معسكر كأنه خلية ضخابة من النحل . . . تطِنّ وتطِن . . . وصارت الساحة الحمراء كأنها سماء ممتكرة ، لرعدها هزيم ولريحها هزيز ، ولبرقها خطف يذهب سناه بالأبصار ...

وشُرعت الرماح وأرهفت السيوف ، وحلقت المنايا كأنها الأغربة السود ترنّق فوق الفرائس ، وتُدوّم فوق الجيف ... !

ولم يكن أجاممنون قد انخدع بالحلم الكاذب ، فشدهه أن يرى إلى استعداد الجيش ونَفْرته نفرةً واحدة . . . ولم يخدعه كذلك هذا العدد العديد من الجنود ، طالما أن ليس فيهم أخيل وشياطينه المقاتلة . . . المير ميدون !

فأوجس فى نفسه خيفةً ، وهاله أن يكون فى الأمر سر ، ووقر فى قلبه أن غَضْبة أخيل لابد أن تغضب السماء ، واستقر فى نفسه أن هذا الجيش العرمرم سائر إلى الهزيمة المؤكدة ، ووارد موارد الردى !

وهكذا جَبُن القائد العام . . . ونَدم على أن عقد المجلس الحربى . . . !

فما أن متع النهار ، ونظر إلى الجند فرآهم يغمرون الأودية ، ويربضون فى مشارق الجبال ، ورأى إلى طروادة المنيعة تهزأ بكواكب الهيلانيين وجيوشهم ، حتى نهض فوق يفاعٍ من الأرض ، وهتف بجنوده يقول :

ـ « يا أبناء هيلاس ! يا بنى قومى !

لست أدرى إلام تمتد بنا هذه الحرب ، وحتام نُفنى هنا فى هذا المكان السحيق من الأرض ؟ !

تسعة أعوام يا قوم ، ونحن هنا بمعزلٍ عن العالم ؛ ننام فى الخيام ، ونأوى إلى السفائن ، تلفحنا الرياح ، ويثور بنا البحر ، وتتخطفنا المنايا !

وعبثاً ينتظرنا أبناؤنا ونساؤنا في هيلاس العزيزة ! ومن يدري ؟ فقد يكون بعض أبنائنا أو آبائنا انتقلوا إلى هيدز ، ونحن هنا نتصارع مع الموت ، من أجل امرأة آبقة لا عرض لها ولا شرف !

أبناء وطني !

ألا أقولها لكم كلمة سواء صريحة ! ؟ هلموا فاغمدوا هـذه الرقاق البيض ، ولنعقد مع الطرواديين هدنة يعقبها صلح شريف ، ثم لنركب أسطولنا الذي نخر السوس في أخشابه أو كاد ، ثم لنعد أدراجنا إلى هيلاس سالمين !

حرب ! . . .

أية حرب هذه التي اشتعلت من هولها الرؤوس شيباً ! !

أية حرب هـــذه التي تودي بأعز المهج ، وتذهب بأغلى الضحايا من نفوس الشباب ! ؟ بل أية حرب هـذه التي توقع العداوة والبغضاء بين أخوين من أعز أبناء هيلاس ، فيتراشقان بالفحش من القول ، ويتبادلان الهجر من الكلام ، ويوشكان أن يلتحما في نزال يودي بحياة أحدهما من أجل امرأة ؟ !

أنا – أجاممنون – أغضب أخيل أخي من أجل لذة طارئة ، ومتاع غير مقيم ! !

يا للهول !

لتنته هـذه الحرب ، لتنته هذه الحرب . . . ولنعد إلى هيلاس . . . . . »

***

وأرسلها أجاممنون خطبة طويلة تفيض بالحقيقة وتعترف بالواقع . . . فصادفت من قلوب الجند المعذبين هوى ، ولقيت منهم استحساناً وتحبيذاً ، وطربت لها نفوسهم التي أضناها الحنين إلى الأوطان ، وشفها التوق إلى لقاء الأهل ، ونبذ نير هذه الغربة الطويلة التي أنهكت قواهم وأوهنت شبابهم

وفكر كل في أبنائه وأبويه وأحبائه ، فهفت نفسه إلى الارتحال عن هـذه الساحة المشجية ، عسى أن يقضي الحقبة القصيرة الباقية من حياته الخريفية في راحة قلب وهناءة بال بين أهله وذويه . . .

لكن الآلهة لا تريد هذا ! !

وكيف تنتهي حرب أثارها باريس بين ربات الأولمب في البدء ؟ !

أليس هو قد قضى في التفاحة لڤينوس ؟

إذن فڤينوس تنصره ، وهي لذلك تقيه هوان الهزيمة وذل الانكسار ! ولكنه أين يهرب من حيرا سيدة الأولمب ، التي وعدته نعيماً وملكاً كبيراً ، إذا هو كان قد أعطاها التفاحة ؟

لقد أسخطها بما لم يسخطها أحد به من قبل ، وهي لذلك تصل ليلها بنهارها في تدبير السوء له ، والكيد لوطنه وعشيرته وكل من يلوذ بهما !

ثم أيان يهرب من سخط مينرڤا كذلك ؟ !

أليست مينرڤا كذلك قد وعدته الحكمة التي لم يؤتها أحد من قبل ، إذا كان قد قضى لها في التفاحة ؟ . . .

إن مينرڤا هي الأخرى تتربص به السوء ، وتود لو أظفرت به أعداءه فينكلون به ، ويسقونه عذاب الهون ، بما قضائه في التفاحة لڤينوس ! !

سمعت حيرا خطبة أجا ممنون من علياء الأولمب ، فأفزعها أن ينقاد الجند له ، وهالها أن يستمد الجميع للرحيل !

فاستدعت إليها مينرڤا ، وخاطبتها بصدد ما قال قائد الهيلانيين ، ثم اتفقتا على أن تذهب مينرڤا إلى معسكر القوم فتلقى البطل المغوار أوليسيز ، فما تنفك تحضه وتحرضه حتى يقوم هو بألهاب عاطفة الجند ، وتفتيح عيونهم على العار الأبدي الذي ينتظرهم في بلادهم ، إذا عادوا إليها من غير أن يظفرهم أربابهم بأعدائهم ، قانعين من الغنيمة بالاياب ! . . . بعد تسعة أعوام في دار الغربة . . .

وانطلقت مينرڤا إلى ساحة الحرب ، وكانت ترف كالسحابة البيضاء في دُجنّة الليل فيما بين جبل إيدا وشواطئ الهلسبنت ، حتى إذا شارفت المعسكر أطلت على القوم فوجدت رؤوسهم يتحاورون فيما قال أجاممنون ، ورأت إلى أوليسيز متجهماً منقبض النفس مُثقل الروح ، يكاد ينشق من الغيظ ، مما سمع من كلام القائد العام الدال على الخور واليأس ، واستبشرت مينرڤا بما رأت من هياج أوليسيز ، فهبطت عليه رحمة من السماء ، وكلمته قائلة ، بحيث لا يراها إلا هو :

« أوليسيز فتى إيثاكا وبطل هيلاس ! ! »

أسرعت إليك — إليك أنت — إليك يا أشجع جندي هنا ، لأحذرك أن تنخدع بكلام أجاممنون ! إنها خدعة يا أوليسيز ! إن القائد العام يحاول أن يسبر عزائمكم ، ويخبر هممكم ، فلا تنطل عليك كلماته

إنكم لم تنفروا إلى طروادة خفافاً وثقالاً لتغتربوا عن

أوطانكم تسعة أعوام طوال ثم لتعودوا كما أتيتم ! بل أضل سبيلا!

أوليسيز ! ما ذنب القتلى الأجرياء الذين خضبت دماؤهم ثرى هذه الساحة ، تتركونهم فى حمرتين من مقابرهم : حمرة الدم ... وحمرة الخجل مما فرطتم فى حقوقهم وتهاونتم فى كرامتهم

وما خطب السنين التسع يا أوليسيز ؟

أكنتم تلعبون يوم ضحيتم بأفجنيا ؟ . . .

أكنتم تلهون يوم أهدر بروتسيلوس دمه . ؟

وشرفكم الذى يذبح كل يوم فى قصور طروادة ! !

واستهزاء الأمم بكم ، وضحك القبائل عليكم ؟ !

لا يا أوليسيز ! هلم حرض القادة ، وانفخ من روحك فى قلوب الجند . . . »

وسمع أوليسيز إلى ربة الحكمة ، فخفق قلبه ، وثارت نخوته ، والتهبت حميزته ؛ وعاهدها على إضرام المممة ، وتأجيج لظى الحرب

وانطلق بين الصفوف فلقى نسطور وأجاكس وبالاميدز وغيرهم وغيرهم من زعماء الجيش ورؤوس فيالقه ، فحذرهم (من الانخداع بكلمات أجاممنون ، لأنها حيلة يريد بها القائد سبر عزائمهم ، واختبار هممهم) ، كما تحدثت إليه مينرفا ! !

وحضهم على التضحية والصبر ، وحرضهم على الجلد والاستبسال ، وذكرهم بعهودهم ونظر الدنيا جميعاً إليهم ، ثم حذرهم من العار السرمدى الذى يتربص بهم إذا عادوا من دون أن يفتحوا طروادة ! . . .

وتغيرت الحال !

وتجددت روح الحرب ، وفتح كل جندى عينيه على مجد الوطن ! ونجح أوليسيز !

ونجحت مينرفا !

* * *

ودهش أجاممنون لهذا التحول المفاجئ فى نفسية الجيش ، تلك النفسية التى كانت منذ لحظة ، فقط ، مزيجاً من القنوط واليأس ، وخليطاً من السرور المخامر لمجرد الأيذان بالعود إلى الوطن ؛ فصارت تضطرم تشوقاً إلى الحرب ، وتتحرق شوقاً إلى امتشاق السمهريات الظوامى !

وما وسعه إلا أن يثنى على شجاعة الجنود ، و . . . عدم استسلامهم ، و . . . ترفعهم عن الاستكانة والاستخذاء ! !

فكان تحوله أعجب . . . وموقفه بين عشية أو ضحاها أغرب !

ونظر الطرواديون من كوى أبراجهم فراعهم التفاف الهيلانيين بمدينتهم ، وإحاطتهم بها من كل جانب ، وسرى الرعب فى قلوبهم ، ودعوا ثبوراً كثيراً ! !

وكان يحنقهم أن باريس الذى جر عليهم كل ذلك الكرب ، وكان السبب المقيم لهذه الحرب ، يقر فى مخدعه الوثير يداعب هيلين المنحوسة ويلاعبها ، ويساقيها كؤوس الهوى والغرام ، غير آبه لما يغص به قومه من كؤوس الردى والحمام !

وخرج باريس لشأن من شؤون لهوه ، وعبث باطل من أغراض غرامه الدنى ، فسمع الناس يلمطون ويلمزون ، ويلوكون اسمه بألسنة الهوان والتحقير ، فثار ثائره ، وفارت حماسته ، وأقسم ليرين الجبناء من ضروب شجاعته ما تنخلع له قلوبهم ، وتطير من هوله ألبابهم . . .

وذهب من فوره إلى أخيه هيكتور فطلب إليه أن يرفع الراية البيضاء ، ويخترق الصفوف حتى يكون فى وسط الميدان ، وينادى قائد القوم ليتفق معه على أن يستريح الجيشان طيلة هذا اليوم ، ثم لتكون مبارزة بين باريس ، على أن يمثل الطرواديين ، ومنالايوس على أن يمثل الهيلانيين ، فاذا فاز أحدهما بصاحبه ، وأظهرته الآلهة عليه ، عاد إلى قومه فرحاً مسروراً ! !

وطرب منالايوس لما اقترحه غريمه الذى كان كالساعى إلى حتفه بظلفه ؛ وصمتت الأفواه وحملقت الأنظار ، وتلمس كل جندى فى الجيشين قلبه من شدة الخفق وثورة الوجيب ؛ وبرز منالايوس وبرز إليه باريس ؛ ومرت الأحداث سراعاً أمام عينى ملك أسبارطة ؛ فذكر عشاق هيلين وصدود هيلين ؛ وذكر يوم الخيرة الكبرى يوم رضيته من دون عشاقها الكثيرين بعلاً كريماً لها ؛ وذكر يوم احتفائه بباريس واحتفال أسبارطة كلها به ، كضيف عظيم لملكها ؛ وذكر أن هذا الفارس الذى تزلزل من تحته الأرض إن هو إلا الغادر الختال الذى اعتدى كأحقر الجبناء على عرضه ، ولطخ بوحل الفضيحة شرفه . . . ثم ذكر كيف فرت زوجه معه تحت جنح الليل . . . ذليلة للذتها ، أسيرة هواها . . . . . فثارت فى قلبه زوبعة من الجنون ، وانفجر فى رأسه بركان من الغضب ، واتقدت فى عينيه جحيم بأكملها من النقمة ، واندفق الدم يغلى فى ساعديه ، وانقض على خصمه فأوشك أن يحطمه . . . لولا أن هاله هذا الطيف الغريب الذى كان يحمى باريس منه ، واقفاً إلى جانبه . . . وخلفه . . . وأمامه . . . ومن فوقه ، ومن كل جهة جاءه منالايوس منها ، يذود عنه ، ويتلقى الضربات الأسبرطية فوق درعه المسرودة ،

أقصوصة عراقية :

رصاصة في الفضاء

« من كتاب (الدفتر الأزرق) للـكاتب ، الذي سوف يطبع وينشر في المستقبل القريب »

بقلم محمود ا . السيد

— ١ —

حادثة غريبة حدثت في مرقص الهلال في بغداد

كان أول من استقر عليـه نظري في ذلك المرقص ، ليلة حدثت هذه الحادثة التي أروي لـكم ، وهي من ليـــالي صيف ١٩٢٨ ، ثلاثة حسبتهم من طلبة المدارس العليا أو صغار الـكتبة في الدواوين ؛ على مقربة مني يقصفون وينظرون إلى من حولهم من النظارة مستكبرين ، ناقدين المرسح نقد راغب في إصلاحه : إصلاح الرقص الخليع فيه والغناء المحزن القديم

وكان النظارة تجاراً صغاراً وذوي حرف ، وعمالاً ، رأيتهم اخواناً متقابلين في حلقات صغيرة من الـكراسي الخيزرانية حول موائد مربعـة مكسوة بقماش الـكتان ؛ تغمر كل مائدة منها أطباق النقـل والأقداح وزجاجات الخمور ، وأنوار المصابيح الـكهربائية المعلقة فوق رؤوسهم ، الملونة بألوان العلم العراقي ، تبدد الظلام . . .

وكان « جماعة » من الشباب « العوام الأريحيين » ، ذوي العباءات الرقيقـــة السوداء التي تشف عما تحتها ، والعمائم « العصفورية » المرقشة باللون الأزرق ، يتراشـقون بالنكات والفكاهات من وراء حوض مبلط بالقاشاني الأحمر كائن في وسط المرقص تجلله الأعلام وسـعف النخل ، وأصواتهم وكلماتهم الشعبية الظريفة تثير الضحك ، وتحيي في نفوس القوم اللذة والسرور

وكانت الراقصـة المغنية الأولى ، تلقى فاتحة الأغاني ، التي أعدت للقوم في تلك الليلة — وهي عامية مشجية — جذلى ، أو متظاهرة بالجذل ، واثقة بنفسها كما كان يبدو من حركاتها ، معتقدة بأنها تجيد الغناء . ثم أنشدت هذه الأبيات من الشعر الشعبي الجديد :

« عن قص الشعر لا تلوموني والوقت هـذي فنونه »

« قص الشعر صار بوطننا على الموده شـحلو فنـه »

« قص الشـعر لنا زينـه شـبه الذهب بالخزينه »

« كل من يمشي بخياله والمحب تنظر عيونه »

وقال واحد من الثلاثة — أولئك الذين حسبتهم من الطلبة أو صغار الـكتبة — وهو مبدّن ذو وجه مربع كأنه مصنوع بفأس النجار ، يخاطب أحد صاحبيه مشيراً إليها :

— إنها لذات وجه صـغير جداً ، وقد صبغت وجنتيها بالصبغ الأحمر لتستر اصفراره ولا شك ، فما أقبحها ! »

ورفع إلى فمه كأسه ، ولم يستمر في انتقاده . أجاب الذي خاطبه وهو أشقر اللون حسن البزة :

— « كلا يا أخي . إنها لجميلة يجمّلها شعرها الفاحم المقصوص طبقاً للطريقة المصرية التي شاعت في الأيام الأخيرة »

وراح ثالثهما ، وهو فتى غرانق ، طلق المحيا باسم الثغر ، يشعل طرف سيكارته ويدخن صامتاً ، والتفت إليـه ذو الوجه المربع يسأله :

— « هل سليمان قادم إلينا ؟ »

— « سوف يأتي . ولـكنه لن يأتينا بقلب مفتوح السرور ، إنهم ظلموه حقاً إذ استلبوا منه وظيفته ، على ما تعلمون »

الأضاة ، ذات الحلقات ! !

ماذا ؟

آه ! إنها هي ! ! هي بعينها ! ! هي ڤينوس ! ! لقد أسرعت إلى باريس تحميه في ذلك الروع الأكبر ! فلما أوشك أن يستسلم عز عليها ألا تنقذ حياته وهو هو الذي حكم لها بالتفاحة ...

لقد رفعته إلى عَلٍ !

وطفق منالايوس يبحث عنه هنا وهنا ... ولـكنه لم يعثر له على أثر !

لقد ذهبت به ربة الحب ، إلى مخدع الحب !

إلى هيلين !

ولـكن ويل له من هيلين ! لقد كانت تطلع على الساحة فترى إلى مبارزة البطلين ، فهالها أن يبطش ملك أسـبارطة بحبيبها ، لولا هذه السحابة البيضاء التي كانت تحميه دائماً من خصمه وتقيه . . . . .

وعذلته هيلين على هذا الفرار المشين ، فـكان عذلها له أشد على نفسه من ضربات منالايوس ! . . .

(لها بقية) دريني خشبة

قال الأول : وقد احتسى آخر حسوة من كأسه !

— « ليس فى خدمة الحكومة شرف للانسان ، فان كان سليمان فتى « وطنياً » مخلصاً فى عقيدته السياسية فأمامه سبل العمل المطلق كثيرة ، والجهاد . إن خوض المعركة فى ساحة الجهاد الوطني قد اقتربت ساعته ؛ فالشعب قد أرهقته الضرائب ، والاستقلال الذى وعدونا صار مجموعة من المناصب العالية ، وعمت فى نظمنا الفوضى ، فماذا نريد أكثر من ذلك لكى نسوغ خروجنا ونهوضنا نحن الشباب ؟ وإلى متى نحسب أن سبل العيش مسدودة أمامنا ، فلا نعرف من طرائق الارتزاق والتكسب إلا الوظيفة ؟ »

قال له صاحباه :

— « صدقت . . هذا صحيح »

وبعد حوار قصير سكتوا ، وكانت فترة بين فصلين

— ٢ —

أقبل الفتى الذى عرفت من بعد أنه هو سليمان على صحبه فى بداية الفصل التالى عجلا يلهث ، خفيا ، وألقى على المائدة جريدة كان يحمل ، ونزع سدارته ، ثم جلس ، وكانت آثار التعب بادية عليه ، واستغرب صحبه حاله ، وناوله ذو الوجه المربع سيكارة ثم سأله :

— « هل حدث حادثٌ غير الذى نعلم ؟ وهل كان اليوم أيضاً تظاهرٌ سياسى ؟ »

— « تظاهر سياسى ؟ كيف ؟ تظاهر سياسى مرة أخرى ؟ أولم يكفنا ما لقينا أمس فى تظاهرنا من ضرب الشرطة اخواننا المتظاهرين بالعصىّ وإرهاقهم ؟ وما الفائدة ؟ »

وكان يجيب صاحبه وهو يتكلف الهدوء ، ولكنه كرر « ما الفائدة » مرتين ثم انفجر صاخبا

وكان العواد والكمانى يطربان الحاضرين بقطعة موسيقية من مبتكرات سامى الشوا إيذاناً بانتهاء دور الراقصة المغنية الأولى

— « لم يبق أمل . . . »

نطق بهذه العبارة حانقاً ، يائساً ، وضرب المائدة بقبضة يده ثم قال :

— « . . . البلاد مقيدة بالمعاهدة ، والمناصب الكبرى للأجانب وذوى العقول القديمة ، وفتيان العراق لا يجدون واسطة لأعلان شعورهم ضد الاستعمار ؛ وهم إذا ما تظاهروا معلنين سخطهم على الصهيونية مثلاً كما فعلوا أمس ، سحقوهم بسنابك الخيل ... قبض الشُّرطة الآن على عبد الكريم ، واحمد حسن وطاهر ، واطفى ... وواحد من المتظاهرين فى المستشفى جريح . . »

واشتد صخبه وصراخه . وكان صحبه ، مع ترحيبهم به ؛ وتقبلهم آراءه ، يتلقون نظرات المحيطين بهم الدالة على استغرابهم هذه الخطبة ، التى لم يسمع أحد مثلها فى المراقص ، فى شىء من الارتباك . ونادى الفتى الغرانقُ الخادمَ ليأتى ضيفهم الثائر بربع من الخمر الأبيض

ثم أقبل صاحب المرقص على سليمان متلطفاً يسكته ، وينبهه إلى أن فيما قاله الكفاية ، وأن الخوض فى شؤون الوطن وسياسته فى المرقص بين الكأس والعود ضرب من العبث ؛ « واليوم خمر وغداً أمر » ؛ وكان الرجل أديباً ظريفاً ، فأفاض على الجماعة بجملة من النوادر قبل أن يتولى عنهم وينصرف

وتركت النظر إليهم ، واستماع أحاديثهم منصرفاً إلى دراسة المرسح !

وكما كان الجاحظ وهو من أئمة الدين يؤلف الرسائل فى القيان ، كنت عازماً على كتابة فصل فى نقد مغنيات بغداد اللائى يطربن أبناء الشعب فى ساعات لهوهم ومرحهم . فقلت أخاطب نفسى : « إليك المادة الأولى من مواد الموضوع » . ثم أخرجت قلمى ودفتر مذكراتى فكتبت :

« كانت المغنية الراقصة الأولى التى يسمونها جميلة العودية معتدلة القامة ، نحيفة ترتدى ثوباً قصيراً بنفسجى اللون ، يتوج رأسها تاج من اللؤلؤ المزيف . وجهها مستطيل . نظراتها تدل على غباء . تضاحك الناس بين حين وآخر ... وأما غناؤها ... »

وكتبت صفحة أو صفحتين من دفترى فى ذكر غنائها ؛ وطريقة إنشادها ، ثم انتقلت إلى وصف الثانية ، وقد جاء دورها وحانت منى التفاتة إلى أشخاص قصتى ؛ فألفيتهم عاكفين على مائدتهم يأكلون ويشربون ويتحادثون ، وكان سليمان يفرغ الثمالة من زجاجة « الربع » التى كانت أمامه فى كأسه ، ثم يطالب من الخادم زجاجة « ربع » ثانية ، وعجبت له كيف سكن بعد هياجه ، ثم سمعته يقول لصاحبه :

— « إننى أكرهها . . أكره تلك المغنية الهزيلة . . أكره تاجها المزيف . . أكره وجهها المستطيل . . أكره نظراتها . .

وأحب زهراء وإن لم تكن مغنية من ذوات الفن ولا ذات شرف في هذا المجتمع ».

وجاء الخادم بالزجاجة ؛ ولم يجبه أحد . وفتح الجريدة التي كان ألقاها ساعة أقبل على المائدة وأشار الى مقالة فيها وقال :

— « صرتُ منذ اليوم أعلن حبي لها على رءوس الاشهاد ، فهذه المقالة بل هذه الفلسفة الجديدة قد غيرت رأيي »

وقرأ :

« لا تحتقروا أحداً من النساء ، فبنو الانسانية سواسية في هذه الدنيا . . . . . »

ولم أستغرب هذه « الفلسفة الجديدة » – على ما وصفها – ولم أعرف صاحبها ، التي راح يؤيدها سليمان في حماسة شديدة . وخيل الىّ من عينيه المحملقتين وصوته الراعد ، أن الثورة الكامنة في أعماق نفسه على وشك الظهور مرة أخرى . ولكنه كان مضطرباً قلقاً ، فلم يكمل قراءة المقالة . ورنا الى المسرح معجباً برقص الراقصة الثانية ؛ وكانت فنانة رومية مستركة وافدة من استانبول . وهز رأسه ، ثم هز رأسه إذ أطربه صوتها الرفيع العذب وأناشيدها التركية الرقيقة . وانشغلت عنه بكتابة وصفها :

— طويلة بيضاء في صفرة كلون الذهب . . . »

واستمررت في الكتابة غير منتبه الى ما يجري حولي ، نحو ساعة أو أكثر أو أقل ، لا أدري . وقبل أن ألقي القلم جانباً رنت في أذني قرقعة أحدثها سقوط أطباق على الأرض ، وصرخة صارخ يقول :

— « أنت خاطئ يا أخي ! أنت خاطئ ومخطئ كل الخطأ ! »

وكان الصارخ سليمان . قلت : « حقاً لقد ثار صاحبنا » . ورفعت رأسي لأنظر اليه ، فألفيته واقفاً منفوشاً شعر رأسه يعربد ، ويقول مخاطباً رجلاً غريباً لم أره من قبل ، كان واقفاً أمامه ينظر اليه نظرة شامت مستهزئ :

— « أنا شجاع ، شجاع ! لقد طردوني لأنني أبيتُ أن أخدمهم لتحقيق غاياتهم

هذا حق ، ولكنني لم أثُر لحرماني من الوظيفة . . . ما أنا بسكران ! . . . لست ثائراً لأني أصبحت محروماً من الوظيفة يا كامل ، بل لأن الوطن يريد رجاله . انظر يا كامل ! ويلك ! أنا رجل أقابل ألف رجل من هؤلاء المخانيث لو دعت الحاجة ؛ وها كم البرهان :

والتفت إلى صحبه مهتاجاً ، وكانوا حيارى واجمين ثم قال :

— « رصاصة لأجل الحرية ! »

وسرعان ما أخرج من جيبه مسدساً فأطلق رصاصة في الفضاء وهرع بعض النظارة إليه ليمنعه من الاستمرار في إطلاق الرصاص ، وبعضهم الى باب المرقص لينجو بنفسه ، إذ أدرك في هذه الحادثة بادرة للجريمة . وجاء شرطي يعدو ويشق لنفسه طريقاً إلى سليمان في الزحام . . . ولم أعد أفهم من الحوادث المتتالية شيئاً . . .

— ٣ —

بعد يومين أو ثلاثة ذكرت الصحف : « أن محكمة الجزاء حكمت على سليمان بن محمود وهو موظف سابق معزول ، بأن يسجن عقاباً له على اطلاقه الرصاص من مسدسه وهو سكران في مرقص الهلال »

ولم أسمع له ذكراً بعد ذلك

العراق — الأعظمية **محمود . أ . السيد**

البريد الأدبي

حول النزاع الأدبي

. . . . . .

لم أعتد الردّ على من يهاجمون شخصي لأني أعتبر واجب الأديب أن يقوم بقسطه من الانتاج ، لا أن يضيع وقته في المشاحنات الفارغة ، ولكن أراني الآن مضطراً إلى أن أقول كلمة (ستكون الأولى والأخيرة لي في الموضوع) إظهاراً للحقيقة ، وخشية أن تمسي « الرسالة » ، وهي المجلة الأدبية الرصينة ، ميداناً لمجادلات هي في نظري أبعد ما تكون عن الأدب :

لا شك أن الغيرة الأدبية هي التي دفعت صديقي الأستاذ الزحلاوي إلى فتح هذا النقاش لاعتقاده أن ثمة تشابهاً كبيراً بين قصيدة الدكتور « ناجي » وبين قصيدتي « عاصفة » المنشورة في مجلة (الدهور) منذ عام ونيف . على أنني أرى هذا التشابه ضئيلاً جداً ، ولا يجوز أن يُعزى إلا إلى توارد الخواطر

أما من جهة ردّ الأستاذ الطنطاوي فهو ادعاء لا تدعمه حجة ولا يؤيده برهان . لقد ادّعى هذا الأديب أن صديقه أنور العطار قال له إن قصيدتي مسروقة من أحد شعراء المهجر ، ثم أردف أنه لا يعرف عني سوى أني « ترجمان قصصي ! » فهل « للرسالة » أن تطلب منه أن ينشر على صفحاتها اسم الشاعر وقصيدته التي يقول إن قصيدتي سرقت منها ، وأصل القصص التي يدعى أني أترجمها ؟

وليعلم الأديب الطنطاوي أخيراً أن من يكتب للناس ما يفيدهم بلغة سهلة بسيطة لهو خير من الذي يسب ويشتم بلغة العرب الأقحاح !

(دمشق) ميشيل عفلق

وفاة رحالة كبير

من أنباء روسيا أن الرحالة المكتشف الشهير بيتر كوزلوف قد توفى في لننجراد في الثانية والسبعين من عمره . وقد اشتهر الأستاذ كوزلوف قبل الحرب باكتشافاته العلمية في مجاهل آسيا ولاسيما في صحراء جوبي . وقد بدأ حياته الكشفية بالاشتراك في بعض الحملات والبعثات الرسمية في أواخر القرن الماضي . وفي سنة ١٨٩٩ جهز حملته الأولى إلى أواسط آسيا ؛ ثم أعقبها برحلات أخرى ، ولكنه وفق إلى أعظم اكتشافاته بين سنتي ١٩٠٧ و ١٩٠٩ حينما اكتشف في صحراء جوبي في اعماق آسيا مدينة مجهولة تسمى خاراخوتو . وكانت بها بقايا أبنية ظاهرة ، وآثار جنس بشري غير معروف . ووجدت ضمن الآثار المكتشفة نقوش وكتابات كثيرة بلغة مجهولة ، ولكن الأستاذ كوزلوف استطاع قراءتها بفضل نوع من الدليل المكتوب وجده بين الأشياء المكتشفة . واستمرت حكومة البلاشفة بعد الحكومة القيصرية على تشجيع كوزلوف والانفاق على بعثاته ؛ فقام في العهد الأخير بعدة رحلات إلى صحراء جوبي كانت أخراها في سنة ١٩٢٦ . وعاونته الحكومة أيضاً على نشر كتاب ضخم عن جوبي وآثارها وعن منطقة خاراخوتو التي اكتشفها . ونشر كوزلوف أيضاً كتباً أخرى كلها بالروسية ، ولكنها لم تترجم إلى لغات أخرى فلم يعرف العالم الخارجي عنها كثيراً ، غير أنه نشر منذ أعوام كتاباً بالانكليزية عنوانه « عصافير منغوليا »

وكان الأستاذ كوزلوف عضواً في جمعيات علمية كثيرة . وكان يعيش في منزل منعزل في غابة بالقرب من نوفجرود مدى أعوام طويلة يرتب المواد والآثار التي جمعها ؛ وكان من آن لآخر يحضر إلى لننجراد ليلقي فيها بعض المحاضرات . وقررت له الحكومة البلشفية معاشاً حسناً ، وقد رافقته زوجه في عدة من حملاته الكشفية

عميد الموسيقى الانكليزية

نعت الأنباء الأخيرة السير فردريك كوين المؤلف الموسيقي المشهور وعميد الموسيقى الانكليزية منذ أواخر القرن الماضي . توفى في الثالثة والثمانين من عمره ؛ وكان مولده بجزيرة جاميكا في سنة ١٨٥٢ ، وأخذ إلى انكلترا صغيراً حيث كان أبوه يشغل وظيفة « بمسرح الملكة » . وتلقى كوين دروسه الأولى في الموسيقى وهو طفل على يد هنري رسل ، وكتب أول قطعة موسيقية وهو في الخامسة . ودرس المعزف (البيانو) على بندكت ، والتأليف

على جوس . وفى سنة ١٨٨٥ ذهب إلى لايبزج ودرس هنالك على أقطاب الفن . ثم عاد إلى انكلترا ، وظهر ببراعته فى التأليف والموسيقى ، وعهد إليه برياسة الحفلات الموسيقية الملكية ؛ ولكنه كان أكثر براعة فى التأليف منه فى العزف . وكانت أولى قطعه الشهيرة « عذراء الورد » ، ظهرت وعزفت فى لندن سنة ١٨٧٠ ؛ وأتبعها بقطعة تسمى « القرصان » . ومن ذلك التاريخ عكف السير كوين على اخراج القطع والاوبرات والأغانى حتى بلغ ما أخرجه منها مئات عدة . وقد انتخب السير كوين مراراً ليكون رئيساً للفرقة الموسيقية التابعة لجمعية الموسيقى الملكية . وفى سنة ١٩١١ ، أنعم عليه بلقب الفارس

وللسير كوين قطع موسيقية راقصة بديعة . ولما بلغ الثمانين من عمره منذ ثلاثة أعوام ، صرح فى حديث له أنه لا يدرى ماذا حدث فى الموسيقى المصرية ، وأنه يلاحظ أن الموسيقى المعاصرة ملأى بالمفارقات والمتناقضات مع أن من شرط الموسيقى أن تكون فياضة التناسق

مؤتمر لتاريخ الطب :

عقد أخيراً فى مدريد مؤتمر لمؤرخى الطب ، وهو المؤتمر العاشر من نوعه يعقد كل عام فى عاصمة من عواصم العالم ، وقد شهده جمهرة كبيرة من علماء مختلف الدول ، وعقد تحت رعاية رئيس الجمهورية الاسبانية ، ولم يقتصر أعضاء المؤتمر على المناقشات العلمية والتاريخية المتعلقة بتاريخ الطب والجراحة منذ غابر الأزمان ، ولكن لجنة المؤتمر قامت بتنظيم معرض هام للمخطوطات والوثائق الطبية من أقدم العصور ، وكذلك لعرض الأدوات الطبية والجراحية التى كان يستعملها الأطباء فى العصور القديمة والوسطى ، ومن ذلك صور ونماذج للأدوات الطبية والجراحية العربية نقلت من مخطوطات ترجع إلى القرن الرابع عشر ، وصور من مخطوطات موسى بن ميمون الطبية والفلسفية وهو الطبيب اليهودى الأندلسى الذى نبغ فى القرن الثانى عشر ويعرف عند الافرنج باسم « ميمونيدس » ومجموعة من آثار اندريس لاجونا طبيب الامبراطور شارلكان ، وأدوات طبية هندية ومصرية ترجع إلى العصور الوسطى ، ونماذج تشريحية وغيرها ، وقد لفت الأنظار بنوع خاص نموذج معروض لحانوت صيدلى مسلم فى قرطبة فى القرن الثالث عشر ، ونموذج لمستشفى « سانتا كروز » القديم فى طليطلة كما كان عليه فى القرن السادس عشر

ملكة التراجيديا

صدر أخيراً كتاب بالانكليزية عنوانه « راشيل الخالدة » للكاتب الانكليزى برنارد فوك ، وهو ترجمة مستفيضة مؤثرة للممثلة الكبيرة راشيل التى سطعت فى النصف الأول من القرن الماضى ، وتركت أثرها الخالد فى المسرح الفرنسى ، وكانت راشيل مثل سان برنهارت وسان سيدون يهودية الأصل ، ولدت سنة ١٨٢١ فى أسرة فقيرة جداً ، وكانت فى طفولتها تغنى وترقص فى شوارع ليون وتجمع الفلوس لتعيش ، ولكنها لم تبلغ السابعة عشرة حتى ظهرت على مسرح « الكوميدى فرانسيز » ولم تمض أسابيع على ظهورها حتى ارتفع صيتها إلى السماكين ، ولم تبلغ العشرين حتى غدت غنية ترتع فى بحبوحة الثراء والترف ، والتف حولها أكثر من أمير وشريف يرغبون فى ودها ، وكانت مثال العبقرية الساطعة ، ولكنها لم تكن مثالاً للأخلاق الرفيعة ، وكانت لها مبادئ وتصرفات خاصة تعدو مجتمعها وعصرها ، وقد خاضت حياة مضطرمة فياضة بالعمل واللهو العنيف ، وتوفيت فتية فى زهرة العمر ، فى الثامنة والثلاثين من عمرها

ويستعرض المؤلف حياة هذه الممثلة الباهرة فى قوة وصراحة ويكشف لنا كثيراً من خواص الحياة المسرحية فى القرن الماضى ويوضح لنا كيف كانت راشيل من أعظم ممثلات التاريخ ، ومن أعظم كواكب الفن والمسرح

ترشيح النجاشى لجائزة نوبل

من الأنباء الطريفة التى وقفنا عليها فى البريد الأخير أن صحيفة سويدية هى جريدة « سوسيال ديموكراتنى » التى تصدر فى ستوكهلم ترشح الأمبراطور هيلى سلاسى لنيل جائزة نوبل للسلام هذا العام ؛ وتؤيد الجريدة هذا الترشيح بمواقف الامبراطور السلمية المشهورة وأحاديثه التى أفضى بها إلى مختلف المكاتبين الأوربيين ، وترى أنه أجدر من وقف إلى جانب السلام هذا العام بنيل الجائزة الشهيرة . ونذكر أن الذى فاز بهذه الجائزة فى العام الماضى هو المستر هندرسون رئيس مؤتمر نزع السلاح ، والسير نورمان آنجل الكاتب الانكليزى وداعية السلام الشهير . ولا ريب أن ترشيح النجاشى سيقابل بالتأييد والارتياح من جميع أنصار السلام ، والمعروف أن السويد تعطف على النجاشى عطفاً خاصاً ، وأن معظم مستشاريه العسكريين والسياسيين هم من رجال السويد

الكتب

علم الدولة

للأستاذ أحمد وفيق

[لمناسبة صدور الجزء الثالث]

بقلم الدكتور محمد توفيق يونس

صدر حديثاً الجزء الثالث من الكتاب الضخم الذى يضعه الكاتب النابه الأستاذ أحمد وفيق فى « علم الدولة » ، وهذا الجزء كسابقيه من حيث طريقة البحث وسياق الحديث ، وإذا كان قد فاتنا أن نتحدث عن الجزأين الأول والثانى حين صدورهما فلا يفوتنا وقد صدر الجزء الثالث أن نتحدث عن الكتاب جملة

***

من العسير بل من المستحيل أن تكون « الدولة » بجميع مظاهرها وتطوراتها موضوعاً لبحث واحد جامع ، إذ أن لها وجوهاً مختلفة يتطلب كل منها بحثاً خاصاً ، فهناك الوجه الدستورى الذى يعنى بهيئات الدولة العليا ، وهناك الوجه الادارى الذى ينظر إلى التفاصيل التنفيذية للحياة العامة ، أو بمعنى آخر إلى مجموع المصالح العامة التى تكفل سير الدولة العملى ، وهناك الوجه المالى الذى يبحث فى إيرادات الدولة ونفقاتها ، ثم هناك دراسة الدولة من ناحية القانون الدولى العام باعتبارها من أشخاصه وبصفتها عضواً فى الأسرة الدولية ، الخ

ولكل دراسة من هاته الدراسات ناحيتان أساسيتان : ناحيتها القانونية وناحيتها السياسية ، وأهمية الاستئناس بالأخيرة فى تحليل المسائل الفقهية لا تحتاج إلى بيان . وإذا أضفنا إلى كل ذلك نصيب التاريخ تبين لنا أى دائرة واسعة من المعارف يمكن أن تدخل تحت هذا الموضوع

ولكن المؤلف الفاضل وإن كان قد سمى كتابه « علم الدولة » لم يقصد إلا دراسة فكرة الدولة أو نظرية الدولة كما أوضح ذلك فى مقدمة الجزء الأول (ص ٤٧ — ٤٩)

لهذا كان أجمل به أن يجعل عنوان الكتاب أكثر تحديداً لما فيه بأن يسميه مثلاً « فكرة الدولة » أو « نظرية الدولة » أو « فى علم الدولة » إذا لم يرد تحديداً دقيقاً

على أن الموضوع الذى فرضه المؤلف على نفسه يبقى بعد هذا التحديد فسيح الأطراف متشعب النواحى متعدد الوجوه الى حد يجعل من الصعب استيعابها جميعاً ودراستها معاً دراسة مستفيضة ، ويضطر المؤلف الى الايجاز وإهمال التفاصيل ، ويُخشى معه ضعف الارتباط وتشتت البحث وتوزع الجهود . والمؤلف نفسه يكتفى فى الواقع « بدراسة عامة إجمالية » (ص ٤٧ من الجزء الأول)

ولقد صبغ المؤلف هذه الدراسة بالصبغة التاريخية فجعل التاريخ العنصر الغالب فى أجزاء كتابه الثلاثة بل قوامها جميعاً .

وموجز بسيط للموضوعات التى تناولها المؤلف تساعد على إدراك ما قدمنا

قسّم المؤلف الجزء الأول من كتابه الى ثلاثة أبواب خصص الباب الأول منها بأصول الدولة ، فتكلم فى الفصل الأول عن ضرورة البحث فى هذا الموضوع ، وقدّم لذلك مثلين هما : فرض الضرائب على الأجانب والنظام الفاشى . ثم انتقل الى الكلام فى الفصول التالية عن مختلف النظريات التى تناولته عارضاً ناقداً محللاً ، فتكلم فى الفصل الثانى عن نظرية الطبيعة ، وفى الثالث عن الأسرة ، وفى الرابع عن العقد الاجتماعى ، وفى الخامس عن القوة ، وفى السادس عن الارادة الفردية ؛ وبعد أن انتهى المؤلف من الكلام على أصول الدولة فى الباب الأول أخذ يتكلم فى البابين الثانى والثالث عن التطور التاريخى لفكرة الدولة ، فتناول فى الباب الثانى الأفكار القديمة من الدولة مستعرضاً إياها فى الهند وفارس والصين ومصر ، وعند اليهود واليونان

والرومان ، وتناول فى الباب الثالث فكرة الدولة فى القرون الوسطى وفى عهدى الأحياء والاصلاح

وفى الجزء الثانى من الكتاب تابع المؤلف بحثه فى التطور التاريخى لفكرة الدولة ؛ فتكلم عنها من عهد الاصلاح الذى ختم به الجزء الأول حتى سقوط نابليون النهائى بعد أن عرج فى طريقه على الدستور البريطانى ، فشرح أطواره منذ نشأته حتى نهاية القرن الثامن عشر

واستمر هذا البحث التاريخى فى الجزء الثالث ، إذ تناول المؤلف أطوار فكرة الدولة ابتداء من سقوط نابليون حتى اليوم - تناولها من ثلاث نواح فى ثلاثة أبواب ؛ خص الباب الأول منها بتطور فكرة الدولة من ناحية سياجها الخارجى ، أو بعبارة أخرى من ناحية القانون الدولى ، وخص الباب الثانى بأهم أطوار العنصر التاريخى للدولة عارضاً لمختلف الحركات الشعبية منذ سنة ١٨١٥ ، أى بعد سقوط نابليون النهائى ، وخص الباب الثالث بأهم أطوار العنصر القانونى للدولة منذ ذلك الحين كذلك واصلاً ما انقطع فى نهاية الجزء الثانى من الكلام عن الحركة الدستورية والنظام البرلمانى فى فرنسا ، خاتماً إياه بكلمة وجيزة عن بعض المبادىء الدستورية الحديثة

والحق أن المؤلف الفاضل — مع ما سبق أن قدمنا — قد عالج هذه الأبواب التى تناولها فى أجزاء كتابه الثلاثة معالجة الملم بموضوعه ، الواسع الاطلاع ، الدقيق الملاحظة ، القوى العبارة ، الجزل الأسلوب

على أننا مع الثناء الخالص على المؤلف والتقـــدير العظيم للكتاب نأخذ على الأستاذ أنه لم يبين فى صدر الكتاب منهاج بحثه ، وتقسيم عمله ، وتسلسل موضوعه ، البيان الكافى الذى ينير أمام القارئ السبيل إلى الغاية

كذلك نأخذ عليه عدم ذكره المراجع كاملة فى الثبت الذى ذيل به كل جزء من أجزاء كتابه فلم يذكر أمام كل كتاب بعد اسم المؤلف والعنوان الكامل لكتابه الجزء الخاص بالموضوع إذا كان للكتاب عدة أجزاء ، وعدد الطبعة إذا كان له أكثر من طبعة ، والمدينة والسنة التى طُبع فيها . فى هذه البيانات ما يساعد محبى البحث والاستقصاء

كما أنه أهمل هذه البيانات عند ما كان ينقل أو يوجز أقوال بعض العلماء فى صلب الكتاب ، فهو كثيراً ما يكتفى بالاشارة إلى اسم المؤلف ورقم الصفحة دون ذكر لعدد الطبعة ، وقد تكون الطبعة التى يرجع إليها القارئ غير الطبعة التى كانت فى يد الكاتب ، والصفحات تتغير فى مختلف الطبعات ، بل هو أحياناً لا يذكر الصفحة التى نقل عنها فيصعب على القارئ الرجوع إلى العبارة المنقولة والتثبت منها

* * *

وجملة الرأى فى الكتاب أنه لم يوجه وجهة علمية صرفة ، بل قُصد منه التثقيف والتهذيب ، وأنه من هذه الناحية ، أى ناحية الثقافة العامة عمل ضخم ثمين ، أدىّ به مؤلفه الكريم إلى قراء العربية خدمة جليلة ، كلّفته جهوداً مضنية من الطاقة والوقت ، فمن حقه أن يقابل بالشكر الوافر والتعضيد الصحيح ما ؟

محمد توفيق يونس